Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسول الله

في القرآن الكريم

حسن كامل الملطاوي

دار المعارف

Bibliotheca Alexandrina
0007540

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسول الله

في القرآن الكريم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسول الله في القرآن الكريم

حسن كامل الملطاوي

الطبعة الثالثة

دار المعارف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) .

[قرآن كريم]

* * *

عن جابر بن عبد الله أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم يومَ الجمعةِ إلى شجرةٍ أو نخلةٍ ، فقالت امرأةٌ من الأنصارِ أو رجلٌ : يا رسولَ الله ، ألا نجعلُ لكَ مِنْبَراً ، قال : إنْ شِئتم ، فجعلوا له منبراً ، فلما كان يوم الجمعة رُفِعَ إلى المنبر ، فصاحت النخلةُ صياحَ الصَّبيّ ، ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم فضمها إليه تئن أنينَ الصبيِّ الذي يُسَكَّن . قال جابر : كانت تبكي على ما كانت تَسْمعُ من الذكْرِ عِنْدَها .

[حديث شريف رواه الإمام البخاري]

* * *

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لقد كان جِذْعٌ تخطب الناسَ عليه فلما كثر الناسُ اتَّخذتَ منبراً لتسمعهم فحنَّ الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم . .

[عمر بن الخطاب]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديم

بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
وزير الأوقاف وشئون الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم . . . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين ، وبعد :

فيقول الله سبحانه وتعالى :

(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

* * *

ولقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته بعد أن أعده الله سبحانه لتلقيها ، إن الأنبياء والرسل يعدّهم الله سبحانه قبل ميلادهم ، إنه يعدهم فى أصلاب الآباء والأجداد بالعِرْقِ الطاهر ، والميراث النقى . . . إنهم خيار من خيار من خيار . . .

يروى الإمام مسلم — بسنده — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

لقد اصطفاه الله من بنى هاشم ، واصطنعه لنفسه ، ورباه على عينه . . لقد رباه سبحانه من قبل الميلاد ، ومن بعد الميلاد ، ليحمل الرسالة الكبرى ، الرسالة العامة الخاتمة ، رسالة الإسلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورسالة الإسلام : طابعها وشعارها وجوهرها ، إنما هو: إسلام الوجه لله ، هو السجود لله وحده ، هو : إياك نعبد وإياك نستعين ، إنه التوحيد ، أو هو الإسلام .

فكلمة الإسلام : تتضمن هذه المعانى التى تتحدد وتتبلور ، برغم اختلاف الحروف والنطق ، لتلتقى كلها منصهرة فى كلمة : الإسلام .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعد من قبل الميلاد لحمل رسالة الإسلام ، وكان يعد من بعد الميلاد لحمل الرسالة : الإسلام .

ولقد سارت حياته بعد الميلاد على الطهر والنقاء ، وكان أول رمز جميل يعبر عن هذه الحياة ، حياة الصفاء والطهر : إنما هو رمز : « شق الصدر » .

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، منذ الطفولة المبكرة ، لقد كان صلوات الله وسلامه عليه — إذ ذاك — فى بادية بنى سعد ، عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان — على ما يروى الإمام مسلم — أتاه جبريل فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه ، فاستخرج منه علقة ، فقال : « هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه » .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه — يعنى مرضعته — يقولون إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً .

وهذا الحادث : إنما يرمز إلى أنه — صلوات الله وسلامه عليه — قد طهره الله منذ الطفولة من حظ الشيطان ، وصدق بذلك قسم والدته حينما قالت لمرضعته : « والله ما للشيطان عليه من سبيل » .

وطُهره واستقامته منذ نشأته ، جعلا العرب يلقبونه بـ « الأمين » ، ولم تكن كلمة الأمين اسماً له ، ولكنها كانت إذا أطلقت لا تنصرف إلا عليه ، وكانوا يفرحون بحكمه ، ويرضون بتحكيمه .

يقول الربيع بن خيثم : « كان يتحاكم إلى رسول الله ، فى الجاهلية قبل الإسلام ، ثم اختص فى الإسلام » ، ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك : قضاؤه صلى الله عليه وسلم فى الخلاف الذى كان بين قريش بشأن وضع الحجر الأسود ، فإنهم حينما انتهوا فى بناء الكعبة إلى حيث يوضع الركن من البيت ، قالت كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبيلة : « نحن أحق بوضعه » ، واختلفوا ، حتى خافوا القتال ، ثم جعلوا حكماً بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبة فيكون هو الذى يقضى بينهم ، وقالوا : رضينا وسلمنا بذلك . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من دخل من باب بنى شيبة ، فلما رأوه قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما يقضى بيننا ، ثم أخبروه الخبر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه ، وبسطه فى الأرض ، ثم وضع الركن فيه ، ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل ، فكان فى ربع بنى عبد مناف : عتبة بن ربيعة ، وكان فى الربع الثانى : أبو زمعة ، وكان فى الربع الثالث : أبوحذيفة بن المغيرة ، وكان فى الربع الرابع : قيس بن عدى ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ، ثم ارفعوه جميعًا » فرفعوه ، ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى موضعه ذلك .

وهذه الحياة الطاهرة ، رافقها شعور مرهف بحب الله سبحانه ، والسجود له ، وتوحيده وإسلام الوجه له . . . وهذا الشعور حبب إليه الخلوة ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه — أى : يتعبد — الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها .

وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يغادر مكة منغمسة فى الضلال ، ليعتكف فى غار حراء متعبداً ، حتى قالت العرب : « إن محمداً قد عشق ربه » .

واستمر الأمر على هذا النسق — من الاعتكاف والعبودية — إلى أن كان الوحى ، وكانت كلماته الأولى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ هذه اللحظة يتحقق بالقرآن فى واقعه وأصبح للقرآن صورتان :

صورة نظرية كلامية : هى هذه النصوص التى توحى .

وصورة واقعية حية تتمثل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثلا كاملا . . . حتى ليمكن أن يقال عنه صلى الله عليه وسلم ، إنه كان قرآنًا حيًّا يسير بين الناس .

ولقد قالت السيدة عائشة — رضى الله عنها — تصف خلقه صلى الله عليه وسلم : « كان خُلُقه القرآن » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكلمة « الخلق » هنا : إنما تعنى حياته كلها ، لقد كانت حياته كلها قرآنًا ومن أجل ذلك كانت الآيات الكريمة تعبر عن ذلك بوضوح :

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) . .

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) . .

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

أما الوصف الذى يجمع كل ذلك فى يقين جازم ، ويبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلص لله بجميع أقطاره ، وأصبح ربانيًّا ، فهو قوله :

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) .

إن حياة الناس تخلص لله — على تفاوت فى هذا الإخلاص — فى بعض الأوقات .

أما حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد خلصت كاملة — فى ليله ونهاره ، فى صمته ونطقه ، فى حركته وسكونه — لله سبحانه . . . ولم تكن حياته وحدها هى التى خلصت لله . . . وإنما كان مماته أيضًا .

ولقد ميزت هذه الآية الكريمة بينه صلى الله عليه وسلم ، وبين بقية البشر . . . وصدق فيه قول الإمام البوصيرى — طيب الله ثراه ، وجزاه خير ما يجزى محبًّا لرسوله :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

والإمام البوصيرى يتابع فى ذلك قول الله تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) :

والأخ الفاضل الأستاذ حسن الملطاوى ، يتابع الجو القرآنى ، فى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتحدث عن هذه المعانى التى ذكرناها . . . يتحدث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنها فى استفاضة وفى دقة ، ويتتبع القرآن الكريم فيما ذكره عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، تتبع الرجل المؤمن الدقيق ، الذى مارس الحياة الروحية ممارسة العابد المتبتل ، فآتاه الله فقهاً فى الدين وفهماً فى كتابه الحكيم .

والأستاذ حسن الملطاوى من هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله فى صدق ، ووقفوا حياتهم للدعوة إليه بالقول وبالسلوك ، فمنحه الله سبحانه وتعالى ، فهماً فى المجالات الروحية لا تتاح إلا لمن أخلصوا وجههم لله سبحانه .

ونحن نغتبط كل الاغتباط ، بأن وفقه الله تعالى للكتابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم . . . فإنه من خيرة هؤلاء الذين يعالجون هذا الموضوع .

وليس هذا بأول شىء كتبه الأستاذ حسن الملطاوى ، فى التوجيه الروحى ، أو البحث الدينى ؛ فقد كتب من قبل عن التصوف ، وعن الذكر ، وعن السيدة خديجة رضوان الله عليها ، وكتب فى الفقه على مذهب الإمام مالك . . . وهو دائم العمل لخدمة الإسلام بكل ما يستطيع .

وكتابه هذا يأتى قمة من القمم الشامخة ، فى مجال الهداية إلى الله ، وفى مجال الدعوة إلى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإننا لنرجو له التوفيق الدائم ، والعمل المستمر . . . لخدمة دين الله ودعوة رسوله . . .

ونرجو الله سبحانه وتعالى ، أن يثيبه أحسن الثواب ، وأن يجزيه خير الجزاء ، وأن يوفقه دائماً إلى الصراط المستقيم .

عبد الحليم محمود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

الحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام فى أكمل صورهما على سيدنا محمد الذى ختم الله به المرسلين ، وجعله رحمة للعالمين ، وهدى به إلى الحق وإلى صراط مستقيم . . . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ، ورضى الله أحسن الرضا عن آله الأطهار الأخيار ، وعن صحبه الكرام الأبرار ، وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

أما بعد . . .

فإن الكتابة فى شأن سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلة وصعبة ، أما سهولتها فتتأتى من سعة مواردها ، وكثرة مصادرها ، وأما صعوبتها فتنشأ من سمو قدره ، وعلو مقامه ، فيجد الكاتب مادة الكتابة غزيرة فى سيرته العاطرة ، لكنه مهما كتب وأبدع يرى ما كتب بعيداً عن تحديد صورته الحقة ، فيخجل من وضعه ، ويخشى أن يكون مسيئاً على غير ما أراد ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن ذلك ليس راجعاً إلى قصور فى استعداده ، وإنما يرجع إلى عظم المكان والمكين ، وكذلك كان شأن من سبقوه على كثرتهم ، فيلمس عذره وعذرهم ويقول ما قالوه :

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه وأين الثريا من يد المتناول

ويعلّل نفسه بأن ما قاله إنما كان بلسان الحب والتقدير ، تبصرة وذكرى لمثله من المؤمنين المحبين ، ويتمثل قانعاً فيقول :

وقد كفانى أنّى محب وأن المـ ـرء مع من أحب يحشر

وقد كنت حاضرت منذ عشر سنوات بنادى التجارة وكان موضوع المحاضرة : « رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم » .

وختمت المحاضرة بقولى :

ولا أبرح مكانى هذا قبل أن أتقدم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخالص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التحية والإعظام ، وببالغ اعتذارى من قلة جهدى فيما تحدثت به عن مقامه الكريم ، طامعًا أن يحمل قصورى على رأفته ورحمته بالمؤمنين .

وأرانى مضطرًّا فى مستهل كتابى هذا أن أكرر ذلك القول وأنا موقن بقبول عذرى واعتذارى ، لأنه صلى الله عليه وسلم أجدر من قبل المعذرة ، وأغضى عن قصور استدعته الضرورة ، وقد كان من شمائله ألّا يرد سائلا أو يخيب رجاء .

وقد كان لتلك المحاضرة أثر فى نفوس السامعين ، وكنت قد نهجت فيها نهجًا فيه شىء من التجديد ، وعدم التقيد بالتقليد ، فى الآيات التى قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عوتب فيها ، وألهمنى ربى من عطائه ، أن أنفى العتاب من نصوص القرآن الكريم ، وأربط القصة الواحدة برباط الآيات المتفرقات ، فتظهر الصورة فى الحادثة الواحدة متكاملة صافية لا شية فيها ، وقد أبدى لى استحسانه لما قرأ بعض أصحاب الرأى من القراء الكرام .

وقد تشرفت بعد ذلك بزيارته صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة ، واستأذنته وأنا بين يديه أن أكتب هذا الكتاب ليتم به ما بدأته بالمحاضرة المذكورة ، ومرت الأعوام دون أن أكتب شيئًا ، حتى أسعدنى الله برؤياه صلى الله عليه وسلم فى المنام فى فجر الاثنين ٥ من شوال ١٣٨٦ هـ (الموافق ١٦ من يناير ١٩٦٧) — وتتلخص الرؤيا المباركة السعيدة فى أننى كنت والأخ الصالح الأستاذ توفيق أبو علم الوكيل الأول لوزارة العدل فى الدور الثانى من منزل ، وجاء من يبشرنا بأن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيشرفنا بزيارة ، فأسرعنا بالنزول لاستقباله ، فلما دخل وأشرقت أنواره البهيّة وطلعته الزكيّة ، قبلت يده الشريفة وذكرت له اسمى ، وأحسست أننى فى جانبه صغير جدًّا فى نفسى ، ثم استيقظت .

وقد قابلت بعدها بمدة زميلى الفاضل الأستاذ توفيق أبو علم عند الكعبة المشرفة من عامين ، وكنّا معتمرين ، فقصصت عليه الرؤيا وبشّرته بها ، فسرّته كل السرور ، ثم التقينا فى رمضان الفائت فى الحرم النبوى الشريف (وكنت أخبرته بعزمى على كتابة هذا الكتاب بعد أن ألقيت المحاضرة المذكورة) فإذا به يقول لى ونحن فى الحرم النبوى الشريف : ماذا تم فى الكتاب ؟ إننا ننتظر صدوره فى شوق شديد ، فتربّطت بين قوله هذا وبين تذكّر الرؤيا الشريفة ، وقلت فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسى : لعل تذكيرى بالكتاب ونحن فى الرحاب النبوى يتضمن إذنًا نبويًّا بالكتابة ، وقد تفاءلت باسم الزميل توفيق أبو علم ، وأملت أن يصحبنى التوفيق فى الكتابة عن صاحب العَلَم صلى الله عليه وسلم ، وبخاصة أن الزميل توفيق قد وفق فألف كتابًا قيمًا عن : « أهل البيت » وتمّ طبعه ونشره ؛ وعدت من المدينة المنورة ، فبدأت الكتابة فى شوال الفائت ، وتيسر لى ما يقرؤه القارئ فى هذا الكتاب الذى بين يديه ، ولعل التوفيق حالفنى فيه كما أملت . فتكون الرؤيا قد تحققت فى التقائنا السعيد معًا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عالم التأليف الذى يتصل به وبأهل بيته الكرام ، ويكون تفضله بالزيارة فى الرؤيا علامة القبول بإذن الله .

وفى غضون الأيام القليلة الفائتة ، بشّرنى تلميذى الصالح الدكتور عجمى حسين عجمى برؤيا مباركة ، رأى فيها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له كلامًا يقرّظ فيه الكتاب ، وكان يذكر الكلام فى أثناء الرؤيا ، ولكنه نسيه بعد استيقاظه ، وأخذت من رؤياه بشرى الإذن بالكتابة ، وبشرى أخرى بالقبول ، والهدية على قدر مهديها ، وليست على قدر المهداة إليه صلى الله عليه وسلم .

ومع صعوبة المرتقى فى الكتابة عنه ، والإحاطة به صلى الله عليه وسلم ، فإن اللجوء إلى كتاب الله تعالى أنار لى سبيل الاهتداء بأنوار القرآن الكريم إلى معالم الطريق ؛ ولئن كان القرآن الكريم واسع الأقطار ، عميق البحار ، إن مباحث الكتاب ازيّنت بأنواره القدسية المشعة ، وهو ما يعطى القارئ سعادة روحية ، فى أن يستمتع بها ، ويغترف منها مشربًا هنيئًا سائغًا للشاربين ، على قدر ما استطعت مناولته من تلك الأقطار الواسعة والبحار العميقة ، ولاسيما أنى قصدت أن يكون الكتاب دعامة من دعائم التربية الإسلامية الصحيحة للقارئين ، بما ضمنته فى كل مناسبة من أقوال أسلافنا الصالحين ، وإرشادات أئمتنا العارفين ، إلى جانب القصد الأصلى من عرض صور مختلفة مما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فى كتاب الله عز وجل ، ذلك الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى أيد الله به الرسالة المحمدية على مر العصور والدهور ، فكان أخلد المعجزات وأبقاها على الزمن ، كما كان الحصن الحصين للمسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا رآنى القارئ الكريم قد أطلت قليلا فى بعض المواطن التاريخية فليعذرنى، فإنى أردت بالتطويل أن أرد القارئ إلى الفهم الصحيح فى الموقف الدقيق ، الذى خاض فيه الخائضون ،ولج فيه المفترون من المستشرقين، لأغراض دنيئة ، قصدوا بها تشويه الحقائق وتلبيسها على الناس لحاجة فى نفوسهم أضمروها كيداً للإسلام والمسلمين ، وقد يتأثر بما كتبوا بعض الناشئين من المؤمنين — عن حسن نيّة — إذا لم يكن ملمّا بحقيقة تلك المواقف التى تتصل بسيد المرسلين وأطهر المطهرين، فى حياته أو بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

كذلك أرجو أن يعذرنى القارئ الكريم إذا رآنى قد خالفت ما جاء فى بعض التفاسير ، مما لا يليق به صلى الله عليه وسلم ، أو بإخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فعصمة الأنبياء والمرسلين عندى مؤكدة بيقين ، وما نسب إليهم من الوقائع لا يحمل الأمر فيه على ما يقع منا من ذنوب أو مخالفات بحجة أنهم بشر ، فهم حقيقة بشر ، ولكنهم مصطفون بعلمه سبحانه ، ومطهرون بفضله تعالى ، وقد أثبت لهم الله فضلهم فى القرآن الكريم ، فلننظر فى أمورهم بعين ذلك الفضل ، ولا ننقصهم منه شيئاً ، ولا يغيب عنا لحظة واحدة قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ أو قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ أو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ، أو قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وإنى أحمده سبحانه وتعالى إذ وجدت عونه فيما كتبت ، وعلامة الإذن التيسير كما يقول العارفون ، كما أن المعانى التى ألهمنيها ربى وجدتها بعد ذلك مقررة فيما وقع لى من مراجع العلماء العارفين ، وتوارد خواطرى ، واتفاقها مع خواطرهم ، إنما هو بركة من بركات سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد غمرتنى بنعمة الله طوال حياتى ، ولست أنكر ذلك لأنه تحدث بنعمة الله ، كما لا أنكر أنى محب له بكل ذرة من ذرّاتى ، وبكل نَفَس من أنفاسى ، وبكل إحساس من أحاسيسى ، وكنت أقول لنفسى وأنا أكتب ذلك الكتاب :

ما شئت قل فيه فأنت مصدّق فالحب يقضى والمحاسن تشهد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكنت أقول ذلك مع تصديقى لما قاله إمامنا البوصيرى رضى الله عنه فى همزيته :

إن من معجزاتك العجز عن وصفـــــك إذ لا يحدّه الإحصاء

ولقد عذرت سادتنا الصحابة الكرام ، وعلى رأسهم الأربعة الكبار سادتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، حين طاشت عقولهم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى هدد عمر أن يضرب بسيفه من يقول إنه مات ، وخرس عن الكلام عثمان ، وأخذ الإمام علىّ يروح ويجىء ، وكان أثبتهم أبا بكر ، ولكنه مع ثباته وتمكينه جاء وعيناه تهملان ، وزفراته تتردد ، وغصصه تتصاعد وترتفع ، فدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فأكب عليه ، وكشف الثوب عن وجهه ، وقال : طبْتَ حيًّا وميتًا ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، ولو أن موتك كان اختياراً ، لجدنا لموتك بالنفوس . اذكرنا يا رسول الله عند ربك ، ولنكن من بالك .

أما السيدة الزهراء ، وهى أحب بناته إليه صلى الله عليه وسلم ، فقالت راضية مرضية فيما رواه البخارى رضى الله عنه : يا أبتاه ، أجاب ربًّا دعاه ، يا أبتاه ، من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه .

وأما أنس بن مالك ، وهو خادمه الأمين رضى الله عنه ، فقد قال فيما رواه الترمذى رضى الله عنه : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شىء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أظلم منها كل شىء ، وما نفضنا أيدينا من التراب وإنا لفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا

وأما حسان بن ثابت رضى الله عنه وهو شاعره الخاص فقد قال :

كنت الســـواد لنـــاظرى فعمى عليـــك النـــاظر
من شاء بعـــدك فليمـــت فعليـــك كنت أحـــاذر

وتلك الكلمات على قلتها تريك أثر محبته صلى الله عليه وسلم فى المحيطين به عن قرب ، والواقفين على أقواله وأفعاله وأحواله ، وقد أوجزت السيدة عائشة وصفه، وهى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفقيهة الراشدة ، واللبيبة العاقلة ، والزوجة الأثيرة ، بنت الصديق الأثير مولانا أبي بكر وهو أول المؤمنين إسلامًا من الرجال ، وأول الخلفاء الراشدين ، والإمام الأكبر ، والعلم الأشهر ، فقالت : كان خلقه القرآن .

وحسبك من وصفها هذا أنه صلى الله عليه وسلم استنار بنور القرآن، وتأدّب بأدب القرآن ، وتحلّى بأحكام القرآن ، فكان أفضل البشر وأكملهم على الإطلاق ، كما كان خير الخلائق أجمعين من أهل السموات وأهل الأرضين ، فهو صفيّ ربه الأصفى ، وحبيبه الأسمى ، ومختاره الأوفى ، ومجلاه الأعلى ، ومصطفاه الأولى ، وإن سألت دليلا على ذلك فاقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[1] فهو كما ترى ميثاق ربّانيّ بزعامته صلى الله عليه وسلم للرسل أجمعين .

وإذا رأيت أن تتذكر بعض شمائله التي حلاه الله بها وطبعه عليها ، فإليك ما قال صاحب تحفة الأخيار ، سيدى العارف بالله أبو عبد الله الأنصارى التونسي المالكي ، المتوفى فى سنة ٨٩٤ هـ :

« كان عليه الصلاة والسلام أكمل العالمين خَلْقًا وخُلُقًا ، وتَذَكَّرْ وفور عقله وذكاء لُبِّه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركته ، وحسن شمائله ، وشرف نسبه ، وكرم بلده ، وحلمه واحتماله ، وعفوه مع قدرته ، وصبره على ما يكره، وجوده وكرمه ، وسخاءه وحياءه ، وشجاعته وسماحته ، ونجدته وفضيلته ، وصفاء مودته ، وبذل تضحيته ، وحسن عشرته وآدابه ، وشفقته ورحمته بجميع الخلائق ، وحرصه على إيمانهم ، ووفاءه وحسن عهده ، وصلة رحمه، وتواضعه على قدر رفعته وعلو منصبه ، وعدله فى سيرته ، وأمانته وعفته ،وصدق لهجته ، ووقاره وصحبته، وتأدبه ومروءته ، وحسن هديه ، وزهده فى الدنيا ، وخوفه من ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، وعلمه بربّه ، وشكره وإنابته إلى ربه ، وحسن قيامه بحقه ، وجميل

---

(١) سورة آل عمران – الآية ٨١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجائه ، وصدق يقينه ، وتوكله على ربه ، ومحبته فيه ، وشدة إيمانه بغيبه ، وكثرة صلاته وصيامه ، وشكره وإعطاءه من مال ربه » .

فما من محاسن الأخلاق صفة إلاّ وقد حازها ، وما من درجة من درجات اليقين إلاّ كان أساسها .

أقول ولا تطمع أن تحيط بها عدّاً ، أو أن تسردها سرداً ، فإنها أكثر من أن تحصى ، وأبعد من أن تستقصى .

وصدق إمامنا البوصيرى إذ يقول :

فإن فضل رسول الله ليس له حــدّ فيعرب عنــه ناطق بفم

كما صدق سلطان العاشقين ابن الفارض حين قال :

أرى كل مدح فى النبى مقصراً وإن بالغ المثنى عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذى هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورى

وإذا أردت أن تعرف كيف اختاره الله على علم ، فاقرأ ما رواه ابن عباس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قسم الخلق قسمين ، فجعلنى من خيرهم قسماً ، وذلك قوله : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ) ، (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ) ، فأنا من أصحاب اليمين ، وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلنى فى خيرها ثلثاً ، وذلك قوله تعالى : (وَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحَابُ الميمنة * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) . فأنا من السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل ، فجعلنى فى خيرها قبيلة ، وذلك قوله تعالى : (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) ، فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً ، فجعلنى فى خيرها بيتاً ، فذلك قوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) » .

أرأيت كيف كان صلى الله عليه وسلم خياراً من خيار من خيار ، وكيف سعدت أمته بهذا الخيار ، فكانت أمته خير أمة أخرجت للناس ، وحظ الوريث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من حظ مورثه ، وما أسعدنا به صلى الله عليه وسلم ، فكل فضل جاءنا فى ديننا ودنيانا ، فإنما جاءنا ببركاته ، ومن فيض جود الله عليه ، ورحم الله سيدى العارف الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى إذ يقول :

أنشاك نوراً ساطعاً قبل الورى ... فرداً لفرد والبرية فى العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته ... من نورك السامى فيا عظم الكرم
تلك المعارف والعوارف فيهمو ... من بحر منتك العميمة سيب يم
بالله صل حبل الرجاء تعطفاً ... أنا ضيف جودك يا إمام أولى الكرم
جُدْ للضعيف بمبتغاه فإنه ... ما للضعيف سوى رحابك ملتزم
جد لى فإن خزائن الرحمن فى ... يدك اليمين وأنت أكرم من قسم

وشاهده فى ذلك قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) .

وهكذا شاء الرحمن الرحيم أن يرحم العالمين على يديه صلى الله عليه وسلم ، وما خص عالماً دون عالم ، بل نال كل عالم من العالمين ، ما شاء الله له من تلك الرحمة ، وحق لإمامنا البوصيرى إذن أن يقول :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

ولا تحسبن أن عطاء الله له وقف عند أمور الدنيا الفانية ، فقد أعطاه المقام المحمود فى الآخرة بقوله تعالى : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُودًا) ، وهو مقام الشفاعة للخلائق ، فى الانصراف من الموقف إلى الحساب ، ثم يشفع بعد ذلك للمؤمنين فى دخولهم الجنة ابتداء ، أو فى خروج عصاتهم من النار ، كما هو معلوم من حديث الشفاعة ، فكل رسول كريم حين يعاين أهوال القيامة يقول : نفسى نفسى ، ويقول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم : « أمتى أمتى » ، وحين يستشفع الناس به يقول : « أنا لها » ، وهو ما يشير إليه سيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه فى قصيدته المستجيرة بقوله :

فالأصل أنت أبو الوجود ومنك فا ... ض الجود فى الدنيا وفى الأخرى وعم
والخلق فرع أنت أصل وجوده ... والفرع مرجعه إلى الأصل الأشم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلذا إليك الخلق تفزع كلهم في هذه الدنيا وفي اليوم الأهم
وإذا رجوك غدًا تقول أنا لهـا واليوم قمت بأمرهم حتى استتم

وسيقول له رب العالمين : اشفع تُشفّع ، وسل تُعط ، وقُلْ يُسمع لك ، فما أعظم شأنه في دنياه وأخراه صلى الله عليه وسلم .

وأود أن ألفت النظر إلى أن ما يجده القارئ من المفاضلة بينه صلى الله عليه وسلم وبين إخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ليس المقصود منه الانتقاص من أقدارهم ، حاشا ، فإن أقدارهم في محلها الرفيع الذي أراده الله ، كما نطق بها كتاب الله ، وإنما هو بيان لمقامه بينهم صلى الله عليه وسلم كما جلاّه القرآن الكريم ، ونحن ما فضلناه عليهم ، ولكن الله فضله ، فبيّنا للقارئ كيف فضله الله في آياته البيّنات ، أما قوله صلى الله عليه وسلم : لا تفضلوني على يونس ابن متى ، فإنه نهى عن انتقاص أحدهم ، وبخاصة أنه جاء في شأن سيدنا يونس عليه السلام .

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقد يسيء القاصر فهم الموقف فينتقص جهلا من اجتباه ربه وجعله من الصالحين ، وإذا تجرأ جهلا على انتقاص واحد من المرسلين ، تجرأ على انتقاص غيره وكان من الغاوين ، ونعوذ بالله من جهل الجاهلين وضلال الضالين .

وسيرى القارئ الكريم فيما يقرأ مفاضلة لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهي مفاضلة بالحق ، الذي جعله الله على لسان عمر وقلبه بدعوته صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه رضي الله عنه فهم من الحديث النهي المطلق ما فاضل، ولكنه فهم الحديث على وجهه ، فصوّر مقام الرسول الأعلى بين المقامات العالية ، فأعطى كلّ ذي حق حقه ، ولم يبخس منه شيئًا .

وليتنزه القارئ بعد ذلك في رياض الكتاب المونقة ، ويستنير بشمسه المشرقة في رعاية من الله ورسوله ، وفي أمن وإيمان ،وليعلم من أمر رسول الله صلى الله عليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسلم ما جهل ، أو يتذكّر من أمره ما نسى ، وليكن همه أن يكون مسلمًا صادقًا ، جديراً بالانتساب إلى الإسلام الذى جاء به ذلك الرسول الأعظم ، فدعا إليه بقوله وفعله وحاله ، وجاهد فى سبيله بنفسه وماله، فى الحرب والسلم ، فى عزم لا يلين ، وقوة لا تهى ، وهمة لا تفتر ، إيثاراً لله على ما سواه، ومن عرف ربه هان عليه ما يبذل فى سبيله .

وليكن لك أيها القارئ برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة كما نصحك الله ، فتخلق بأخلاقه ، واتسم بصفاته ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالفقه عنه ، والاستماع منه ، والطاعة له ، فإنك إن فعلت ، سعدت مع السعداء فى دنياك وأخراك ، كما سعد السابقون الأولون ، والآخرون الصالحون ، وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدون ، وتأمل فيما نبهنا إليه أهل الفراسة والفطنة حين قالوا: إن الله تعالى جعل لرسوله مناسبة تشريف حين جعل حروف : « لا إله إلا الله » اثنى عشر حرفًا ، وجعل حروف « محمد رسول الله » اثنى عشر حرفًا ، وسرّ هذه المناسبة كانت لهؤلاء الخلفاء الراشدين أيضًا ، فاسم « أبو بكر الصديق »، واسم « عمر بن الخطاب» واسم « عثمان بن عفان » ، واسم « على بن أبى طالب » ، يشمل كل منها اثنى عشر حرفًا ، وهى مناسبة إرضاء الله فى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك ما يكشف لك عن سر سعادتهم ، لكمال مناسبتهم فى أخلاقهم للحضرة النبوية الشريفة ، وقد شهد الله لها بالكمال فى قوله تعالى :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

وإن أردتَ ضماناً بالسعادة فهاكه من ربك لا منّى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً)[1].

هذا وأرى لزامًا علىّ أن أتقدم بجزيل شكرى لصديقى الوفى والعلامة التقى الدكتور عبد الحليم محمود ، إذ تفضل فقدم الكتاب لقرائه وزكّى الكاتب وما كتب ، مما أعتز به ، وأطمع أن أكون أهلا لحسن ظنه وجمال وصفه ، فإنه

---

(١) سورة النساء : الآيتان ٦٩ و ٧٠ .

من علمائنا العاملين وأئمتنا العارفين الذين ندخرهم للدنيا والدين .

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لأحبابى السادة المخلصين الأستاذ سعيد الأنصارى المدير العام بمصلحة الضرائب ، والمهندس على حافظ بوزارة الصناعة ، والأستاذ عبد الحميد أحمد الملطاوى المراقب العام للإيرادات بالميزانية، لما بذلوه من مجهودات حميدة فى مراجعة أصول الكتاب مما أغنانى عن حمل عبء المراجعة وحدى .

فاللهم كافئ الجميع عنى يا رب العالمين . والسلام على من اتبع الهدى .

الخميس ١٢ من ربيع الأول ١٣٩٢ هـ
٤ من مايو ١٩٧٢ م

المؤلف
حسن كامل الملطاوى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

العقيدة الإسلامية

الإسلام دين الفطرة :

الإسلام دين الفطرة ، وكل مولود يولد على الفطرة ، والفطرة تهدى إلى وجود خالق لهذا الكون ، كما تهدى إلى أنه خالق واحد ، لا أول لأوليته ، ولا آخر لآخريته ، ليس كمثله شيء ، لاينسب إليه البنون لاستغنائه عنهم ، ولا تفنيه السنون ، لأن حياة الخلق وموتهم بيده ، ولا يشاركه فى تدبير الأمور أحد ، لأنه غنى بنفسه عن غيره ، وغيره محتاج إليه على الدوام .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه : إن الله تعالى عرّف الإنسان به وتجلى له ، كما استنطقه وألهمه الإقرار بربوبيته ، فشهده الإنسان ووحّده ، وأخذ الله عليه عهداً بذلك ، وذلك كله فى عالم آخر غير هذا العالم ، هو عالم الذرّ قبل وجود الأرواح البشرية فى الأبدان . واستدل رضى الله عنه بقوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) .

وكلامه هذا يفسر لك قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ، كما يفسر لك قوله تعالى فيما حكاه عن أهل الكفر والشرك فى سورة الزخرف : (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) ، ولم يقبل الله منهم ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التقليد الأعمى ، فقال تعالى اعتراضًا عليهم فى سورة البقرة : (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) .

وقد ركب الخالق فى المخلوق عقلا يفكر به فيما يحيط به من الكائنات ، وهذا العقل يساعد ويساند الفطرة السليمة فى عقيدتها ، غير أن العقل آلة مقيدة بالمحسوسات فهو يجول حول الكون ولايستطيع أن ينفذ إلى ما وراء المحسوسات ، فمن اعتمد على العقل وحده دون نور الفطرة أخطأ الطريق واعترته شكوك التيه وصدق من قال :

إن شمس النهار تغرب بالليـــــل وشمس القلوب ليست تغيب

وأداتا المعرفة العقل والروح ، والعقل هو الملكة المدركة للعلوم بواسطة الاستدلال ، وهو الأداة التى يستخدمها فى معرفة الله أرباب النظر العقلى ، والروح هى الملكة المدركة للعلوم بواسطة المذاق المباشر عن وجدان سليم .

والعقيدة الإسلامية تقوم فى أساسها على أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإذا نطق الإنسان بهاتين الشهادتين بلسانه ، واعتقدهما بقلبه ، فقد صار مسلماً ، وطولب بما يترتب عليهما من الإيمانيات والعبادات والمعاملات ، كما شرع الله وبلَّغ رسوله صلى الله عليه وسلم . وقلب المؤمن مهيأٌ بفطرته لأن يسع الله بيقينه توحيدًا وإيماناً ومحبة وإخلاصاً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ (وَلٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

والألوهية معناها السيادة المطلقة ، فالشهادة الأولى إقرار بسيادة الله الذى لا شريك له ، والشهادة الثانية إقرار برسالة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا أقرّ إنسان بالشهادة الأولى وأنكر الثانية لا يعدّ مسلماً ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والأدلة على ذلك كثيرة فى كتاب الله الكريم ، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى فى سورة الصف : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) . وهذه الآيات صريحة فى أن سعادة الدنيا والآخرة مرتبطة بأساس العقيدة ، وهو الإيمان بالله ورسوله . وكذلك قوله تعالى فى سورة الحديد يخاطب المؤمنين بالرسل السابقة على الرسالة المحمدية (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) . وقد آتى الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم فضله ، ولا مانع لما أعطى الله .

ولم تكن الرسالة المحمدية الأُولى من نوعها ، بل سبقتها رسالات إخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، ويجب الإيمان بهم كما يجب الإيمان به ، ويقول تعالى فى هذا المقام مثلا فى سورة الحديد : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) .

والحكمة فى إرسال الرسل إنما هى لتذكيرهم بما نسوا ، وإرشادهم إلى فطرتهم التى حجبتها عنهم شهوات الجسد الذى لابسته الروح وهم أجنة فى بطون أمهاتهم ، وتلك الرسالات إنما هى رحمة من الله بعباده لئلا يكون للناس عليه حجة بعد الرسل الذين هم حجة الله على خلقه : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) .

وقد دعا الله الناس إلى التفكر فيما يحيط بهم من آثار قدرته تعالى ، وعاون عقولهم فى رسم طرق التفكر ، فقال تعالى مثلا فى سورة الأعراف : (أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) ، وقال تعالى فى سورة سبأ : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) ، ويقول تعالى فى سورة الطارق : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) . ويقول إمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : عجبت لمن شك فى النشأة الآخرة ، وهو يرى النشأة الأولى . ويقول تعالى فى سورة الغاشية : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) ، ويقول تعالى فى سورة عبس : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُوناً وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) ، ويقول تعالى فى سورة فاطر : (يَـا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُو فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) * أى تصرفون عن الحق .

ثم إنه تعالى بعد أن دعا العوام إلى التفكر فى المحسوسات دعا أهل العلم إلى التفكر من طريق العلم ، فقال تعالى فى سورة النساء : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً) ، أى لو كان من عند البشر لاعتراه ما يعترى كلام البشر من تناقض المعنى ، وتفاوت الأسلوب قوة وضعفاً ، فكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكًا ، ولما تحققت أخباره الغيبية التى نبأت عن حوادث مستقبلة ، فوقعت كما صورها الله قبل أن تقع ، وليس ذلك التدبر العلمى فى مقدور العوام ، بل هو من شأن العلماء الواقفين على أساليب البلاغة ودقائق البيان ورقائق المعانى ، وما يعقلها إلا العالمون .

ولقد كنت أذكر ليلا كلمة التوحيد : « لا إله الا الله » ، وأراعى وأنا أذكرها معناها وهو : لا معبود بحق إلا الله ، وأطوى فى قلبى فى كل مرة من ذكرها « محمد رسول الله » ، فإذا بلبى يذهب فى فسيح آفاق تلك الكلمة الحقة ، وينتهى فيما ذهب إليه إلى أنها كلمة الوجود كله ، ولولاها ما قام الوجود ولا كان موجود من إنسان وحيوان وجماد وجن وملائكة وسموات وأرض ونجوم وكواكب وبحار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأنهار وجبال ، ولما قامت الرسالات السماوية ، ولما نزلت الكتب القدسية والشرائع الربانية ، ولما خلق الله جنة ونارآ ، وثوابًا وعقابًا ، وسعادة وشقاء فى الدنيا والآخرة ، وهى كلمة التقوى بحق كما سماها الله تعالى فى قوله الكريم فى سورة الفتح : (فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَق بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً) .

وصدق سيدى الإمام المرسى أبو العباس رضى الله عنه إذ يقول : ليست الفتوة بالماء والملح[1] بل هى بالإيمان والهدى كما قال تعالى فى أهل الكهف : (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) . وقد بين الله تعالى حكمة الخلق فقال تعالى فى سورة الذاريات : (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) . قال ابن عباس فى معنى يعبدون أى يعرفون ، ومن ذلك يتبين لنا أن معرفة الله هى أول فرض افترضه الله على عباده

وفى مناسبة الاستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده أرى من المفيد أن أنقل للسادة القراء رسالة كانت جاءتنى فى آخر سنة ١٩٦٢ من شاب مثقف — طالب بكلية التجارة — شكا لى فيها حاله، وكشف عما يساوره من حيرة ، وقد أعجبتنى صراحته كما أعجبتنى استشارته لى ، وكان قد قرأ لى محاضرة ألقيتها بنادى التجارة فى « محبة الله تعالى » وقد أجبته حينئذ بالجواب الذى يراه القارئ الكريم بعد الرسالة، ولم أرد أن أذكر اسمه خشية أن يكون فى ذكره حرج عليه ، لأنى إنما قصدت من نشر الرسالة والرد عليها لبّ الموضوع .

---

(١) يقصد بالماء والملح قوة البدن . وقوة الروح بالإيمان والهدى هى الأهم لأنها أبقى أثراً بعد الموت أما قوة البدن فتتلاشى بالموت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وها هى ذى رسالته

القاهرة فى ٣١ ديسمبر ١٩٦٢ :

السيد الأستاذ حسن كامل الملطاوى

تحية طيبة

« اسمح لى يا سيدى أن أقدم نفسى لسيادتكم :

فلان . . موظف بجهة . . طالب بكلية التجارة ، أبلغ من العمر ٢٤ عامًا ، أى تلك السن التى تتصارع فى نفس الفرد منا رغبات عنيفة ، وتتصادم فى داخل عقله مختلف الأفكار التى قدمتها لنا مدنية القرن العشرين مع ما قدمت من تقدم هائل فى نواحى العلم والفن ، إلى جانب تلك الأفكار الفلسفية المختلفة فى وجود الله ووجود الإنسان ، فى حقيقة الكون وارتباطه بالقوى الغيبية التى تسيطر عليه .

إن تلك الأفكار بتأثيرها تسيطر على أمثالنا من الشباب فإننا ننشأ على الإيمان الفطرى إذ وجدنا ذوينا مؤمنين فآمنا ، حتى إذا استقل الفرد منا بعقله وفكره بدأت أمواج الشك تتلاعب فى مخيلته ، وبدأت أعاصير الشهوة تفرض عليه نوعًا من التحلل من تعاليم دينه ، وتدفعه إلى تدبير ما يرتكب من آثام ، حتى إذا بلغ من ذلك مبلغًا أحس باليأس والقنوط من نفسه ، فإذا هو ساخط متبرم بالحياة ومن عليها ، ساخط على ربه الذى خلقه ، جاعل من عقله وسيلة يسيرها على حسب هواه .

وهذا هو ما حدث لى عقب عدة أحداث هزت كيانى . . . فشل أسلمنى إلى نوع من الخمول والجحود إلى سلبية عجيبة أعقبتها ثورة على كل ما تعارف عليه الناس من تقاليد ، وكنت أحاول أن أجد تبريراً لأفعالى وتصرفاتى فلا أجد فأزداد انحداراً فى الهوة .

ولكن فى داخلى شىء يتلوى ، شىء يهيب بى أن أرجع عما أنا فيه ، وفجأة أحس بالقدرة على نفسى ، على وجودى ، وأتساءل : أين الله ليعطينى كما أعطى غيرى الهداية ، وإذا كان قد حرمنى منها فلماذا خلق لى ذلك القلب الخفاق بالأمل والحب ، لماذا جعلنى ذلك الإنسان الحساس المتألم . أين الحكمة فى ذلك ؟ لماذا خلق لى قلبًا خفاقًا وحرمنى الحب ؟ لماذا خلق لى نفسًا طموحًا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخلق فيها الأمل وحرمنى القدرة على تحقيقه ؟ لماذا خلق العقل لأفكر وأدبر وحرمنى القدرة على تنظيم فكرى وتدبير أمرى ؟

أى نموذج لعدة متناقضات أنا ؟ فأين التكامل فى خلقى ؟ أين التكامل بين قدراتى ؟ من المسئول عما وصلت إليه ؟

هل المسئول هو أنا ؟ الإنسان العاجز الضعيف الذى ليس بيده أى أمر ؟ أنا الإنسان المسير فى أعمالى ، أنا الذى جئت للدنيا دون أن أعلم ودون أن أستشار ، أنا الذى كان وجودى فى الحياة رهن قوى لا أعلمها ، أنا الذى ضيع القدر آمالى وأحلامى ،

وبعد كل هذا ماذا أفعل ؟ إلى أين أسير ؟ إنى أنادى الله فى عليائه عبداً من عباده فليجبنى إن كان موجوداً ، إنى أناديه باسم حقى الطبيعى الذى أعطاه لى يوم خلقنى وجعلنى عبداً من عباده وجعل لى عقلا يفكر ، وقلباً يخفق ، ونفساً تهفو ، باسم ما حرم وما حلل ، باسم الآمال التى خلقها فى قلبى ، وباسم الفشل الذى كان من نصيبى ،

إنى أناديه باسم الله باسم الرب ، إنى أناديه باسم الخالق الذى خلقنى فليجبنى ، فأنا أنتظر ، أريد أن يطمئن قلبى وتهدأ نفسى ، أريد أن أستريح .

لقد بعدت الشقة بيننا وبين ما سبقنا من رسله وأنبيائه ، وفى الطريق الطويل عبر القرون ضاعت معالم الإيمان وتزعزعت الحقيقة فى القلوب ، ومع موجات الفكر الجديد كادت تمحى الصورة نهائياً .

واليوم من واجب الله نحو خلقه أن يعطيهم النور الذى يهتدون به ، النور الذى يبدد ظلمات الشك والريب التى تعصف بكيان كل شاب الآن ، إننا فى عذاب ، لقد كانت الطفرة الأخيرة التى انتقل بها جيل بعد جيل لها أكبر الأثر فى نفوسنا ، فالتقدم الهائل الذى تعيش فيه البشرية لايقابله تقدم فى نواحى الحياة الأخرى ، فالتقاليد من وراء الحياة تلهث فلاهى مستطيعة اللحاق بالركب ولا هى تاركة الركب يسير

والدين وأهله ورجاله فى موقف المتفرج على الحياة ، قنعوا من الحياة باللقمة التى يأكلونها وقنعوا من العلم بالكلمات التى يرددونها ، فهل تركنا الله يا سيدى ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا كان تركنا فلماذا كان خلقنا أصلا ؟ هل خلقنا ليتركنا ؟ لا ، فالعادل لايترك من خلقه وذلك شأن السيد العادل ، لايترك عبده فى حيرته بل هو يقدم الهداية ويبصره بالنور .

إننى أبحث عن النور والهداية ، إننى أبحث عن الله فى رحمته ومحبته ..

سيدى ، أظنك تتساءل : لماذا أكتب إليك كل هذا ؟ وإليك السبب ، لقد وقع بين يدى مصادفة صفحات بقلمك عن محبة الله وعشت فى الكتاب وبين سطوره بكل إحساسى وكيانى ، كنت أحاول أن أجد بين سطوره بصيص نور أو أمل ، ولكنى وجدت نفسى بعيداً كل البعد عما جاء فى الكتاب ، وأحسست أنى أتضاءل أمام كلماته ، فقررت أن أكتب إليك وأفتح قلبى وأفضى إليك بمكنون نفسى وأسألك كيف السبيل وأين الطريق ؟ »

ولدك

فلان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وها هو ذا ردى على الكتاب سالف الذكر :

القاهرة فى ٣ يناير سنة ١٩٦٣

إلى السيد . . . . .

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد — فلقد تلقيت كتابكم المحرر فى ٣١ ديسمبر ١٩٦٢ ، وأبادلكم تحية بتحية ، وأشكر لك حسن ظنك بى والكتابة إلى فى موضوع شغلك وأقلق بالك ، تلتمس المخرج مما يحيرك فى أمر العقيدة ، والقضاء والقدر ، ووجود الله ، وتخلف المسلمين عن ركب الحياة . . . إلخ .

والشك الذى يساورك سرنى ، لأنه بداية السعى لليقين وتعرف الحقيقة وإنك إنما تريد أن تقوم عقيدتك على اقتناع شخصى منك ، لاتقلد فيه والديك أو غيرهما من الناس .

وهذا الاتجاه فى ذاته دليل الخير فيك ، والأمر سهل جداً وصعب جداً ، سهل لمن فكر بالمنطق الفطرى فنظر إلى وجوده من عدم ، ثم كان بشراً سوياً ، له حيويته وتطوره من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة ، ثم هو بعد ذلك ميت لا محالة ، لا يدرأ عنه الموت أحد ، ولو اجتمع على مد حياته كل أطباء العالم ، واتخذوا فى هذا الشأن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ثم إنهم يعجزون عن أن يخلقوا فى غيره روحاً كالتى تدب فيه ، فإذن عجز البشر واضح فى بداية الإنسان ونهايته .

وهذا التفاوت الذى تراه بين الناس فى أرزاقهم وعقولهم وآجالهم وصحتهم كذلك يدل على تدبير ليس فى أيديهم .

فلا حيلة لك فى اختيار والديك ولا الوطن الذى نشأت فيه .

ثم هذا الكون بما فيه من بدائع المصنوعات والمخلوقات ، من شمس وقمر ونجوم وسماوات مرفوعة بغير عمد ، وليل ونهار يختلفان ، وزروع وأنهار عذبة وبحار ملحة وجبال ورمال ومعادن . . إلخ كلها مسخرة فى خدمة الإنسان .

كل هذه الظواهر إنما تدل على وجود صانع للإنسان ولغيره من المخلوقات والكائنات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولو فرضنا أن لها أكثر من صانع واحد لأدى بنا هذا الفرض إلى أن ما يصنعه واحد ، يعجز عنه الآخر بحكم تخصصه فى خلق أشياء دون أشياء ، ولتصورنا أنه لو قام خلاف بين الصناع لفسد الكون من شمس تحتجب عناداً فى زميله ، ومن أنهار تغيض ، ومن نبات لاينبت ، وتكون النتيجة موت الخلق بانعدام أسباب الحياة .

إذن فالتوحيد واضح ، وإن هذا الصانع لابد أن يكون واحداً ، وألا يكون من جنس ما صنع ، وإلا كان مصنوعاً مثل ما صنع وله صانع ، والمصنوع عاجز ومحدود ، وإذن وجوده من ذاته لا من غيره .

ومؤدى ذلك وجود صانع غير مصنوع وغير مشارك ومخالف للمصنوعات .

وبما أن المصنوعات من الحوادث التى لها بداية ولها نهاية ، فلابد ألا تكون له بداية وألا تكون له نهاية .

فثبت بهذا المنطق الوحدانية والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث وهى كلها صفات ليست للمخلوقات ، بل هى لله وحده .

أما المخلوقات فلها التعدد ولها بداية ولها نهاية ولها شبيه .

وظاهرة تتكرر بين الناس فى كل يوم وليلة ، هى ظاهرة النوم قهراً وظاهرة الاستيقاظ بعد النوم ، ومهما قاومها الإنسان فهى غلابة ، وهذه الظاهرة تدل على الموت المصغر وعلى البعث المصغر ، فهناك إماتة وقتية وبعث وقتى ، وهى ظاهرة تغلب فيها القوة الخفية التى تتحلى بالصفات المذكورة، وهى قوة الله .

وهذا الصانع الذى له الوحدانية والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والذى تظهر آثاره فى هذا الكون المحيط بنا ، هو الله سبحانه وتعالى ، ولا شبهة فى وجوده ، كما لاشبهة فى الصفات الواجبة التى ذكرتها لك .

أما العقل وهو ما ميز به الإنسان فوراءه روح تفوق العقل اتساعاً وانفساحاً ، وهى من أسرار الله ، بل إنها لو غابت عن العقل لفقد تفكيره ، والدليل أنه إذا مات الميت جمد المتحرك منه ويبست أعضاؤه ثم تفتتت عظامه وفقد عقله ، كل ذلك لخروج الروح منه التى كانت مودعة فيه بسر إلهى .

وهذه الروح جوهر لطيف وسر كما قلنا من أسرار الله ، تسعد باتصالها بالله والاعتقاد فى وحدانيته ، وفى قضائه وقدره ، وفى البعث بقدرته يوم ينظر المرء ما قدمت يداه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما تخلف المسلمين عن ركب الحياة فإنهم تخلفوا لتركهم أسباب التقدم ، لأن الله ربط الأسباب بالمسببات ، فهو مثلا سبحانه رازق العباد جميعاً ، ولكنه أمرهم أن يسعوا لذلك الرزق بأسبابه من زروع وتجارات وصناعات . . إلخ ، فمن ترك الأسباب فقد خالف ناموس الله ، فإذا لم يجد رزقاً لا يلوم إلا نفسه . وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « لايقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

كذلك جعل الله النصر على الأعداء بأسبابه فقال : (وأعدُّوا لهُم مَّااستَطَعْتُم مِن قُوَّة) ، فمن أهمل فى هذا الجانب وكتبت عليه الهزيمة لايلوم إلا نفسه وهكذا . . . .

ومسايرة ركب الحياة ارتبطت بالعلم وموالاته ، وأنت تعلم أن المسلمين ظلوا القرون الطوال مغلوبين على أمرهم من أعدائهم ، فخلفوهم عن ركب الحياة ليكون المغنم للمستعمرين والغرم على بلاد المسلمين ، ولكننا والحمد لله بدأنا فى هذا العهد الأخير نسترد حريتنا ، ونبنى مجدنا ، ونرفع رؤوسنا ؛ وإن شاء الله فسنكون بالصبر والمثابرة فى الطليعة بإذن الله .

أما أنك وجدت الفرق بعيداً بين ما تجد نفسك فيه وبين ما قرأته فى محاضرتى عن « محبة الله » ، فذلك أمر طبيعى ، لأنك قرأت عن أهل الذروة فى الإيمان ، وهم أشبه بالمتخصصين المتعمقين ، ونحن وأنتم ما زلنا فى بداية طريق الإيمان ، ومن سار على الدرب وصل ، وفى الأمثال الصينية حكمة يقولون فيها : (إذا خرجت من بيتك فقد قطعت ثلثى الطريق) ، والنية الطيبة والإيمان الثابت يوصلان الإنسان إلى غايته بعون الله وتيسيره .

هذا ، ويسرنى أن أخبرك أنى سأحاضر بقاعة المحاضرات الأزهرية (قاعة الإمام محمد عبده) بالدراسة يوم الثلاثاء ١٥ يناير سنة ١٩٦٣ الساعة السادسة مساء فى موضوع تتصل جوانبه بما يشغلك وموضوع المحاضرة « التصوف من وحى القرآن والسنة » . وأود لو تيسر لك الاستماع يومها لما أقول .

وأكون شاكراً لو قدمت لى شخصك بعد أن اتصلت بى بالمكاتبة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . . »

حسن كامل الملطاوى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسلام دين عام :

وكما أن الإسلام دين الفطرة فهو كذلك دين عام ، وإليك ما يقوله فى هذا الشأن فضيلة العالم المرحوم الشيخ يوسف الدجوى فى كتابه « الرسائل » :

الإسلام دين عام ، جاء بإصلاح العقائد التى لعبت بها الأهواء ، مصدقاً لجميع الكتب ومهيمناً عليها ، محترماً لجميع الأنبياء ، وليس بالدين ذى الأنانية الذى يعادى أربابه كل من سواهم ، ولا يعتقدون إلا فى رسولهم الخاص ، ويرمون من عداهم بالكذب والبهتان .

« . . . فكان دين الإسلام جامعاً للناس على الرسل غير مفرق بينهم قائلا لهم : (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) .

«ويقول لأهل الكتاب : (يٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) ، وينهاهم عما كانوا يفعلونه بقوله : (وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ، فهو يريد أن يجمعهم على الأنبياء جميعاً ، ويرجعهم إلى أصول دينهم الحقة .

« . . . إن تعاليم الدين الإسلامى الحنيف مبنية على أساس متين من الحكمة ، لا يزعزعه شىء ، ولا يؤثر فيه مؤثر ، ومبادئه عقلية بحتة ، لم يدخلها شىء من أوهام النفس ، ولا من خرافات الاعتقادات ، ولا فاسدات العادات . . . لذلك كانت الدعوة إليه عامة ، لا تختص بعربى دون عجمى ، ولا بحضرى دون بدوى ، لموافقة مبادئه لكل الأمم على شكل واحد ونسبة واحدة ، ولذلك يسمى « الدين الفطرى » .

الإسلام والعقل :

« . . إن الإسلام يقول لمتبعيه : تفكروا ، تدبروا ، انظروا ، إلى كثير من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أمثال ذلك مما ورد فى القرآن الكريم ، إنا نقول لبنى الإنسان بصوت يملأ الخافقين ، ويسمع جميع الثقلين : حاكموا هذا الدين أمام العقل ، حاكموه أمام الوجدان ، حاكموه أمام البرهان ، حاكموه أمام المدنية والعمران ، حاكموه أمام شرائع المشرعين وقوانين المقننين وآداب المؤدبين ، حاكموه أمام أخلاقكم ومستحسن عاداتكم ، حاكموه أمام فلسفتكم وروحانياتكم ، قارنوا بين تاريخه وتواريخ الدول والأديان ، انظروا فيه بالميكرسكوب والتلسكوب ، حللوه بما شئتم من التحليلات ، امتحنوه بما أردتم من الامتحانات على شرط الإنصاف وعدم التعصب ، فستنطق ظواهره الطبيعية والروحانية بأنه منبع كل خير وجماع كل فضيلة » .

الإسلام دين الوحدانية فى جميع الرسالات :

ويقول فضيلة العالم الشيخ محمد أبوزهرة ، مدّ الله فى عمره ، فى كتابه « العقيدة الإسلامية » :

« الإسلام دين الوحدانية ، وهو لهذا الدين الجامع بين الديانات السماوية كلها ، فهو الذى سجّل فى مصدره الأول ، وهو القرآن الكريم ، أن التوحيد هو الأساس فى الديانات السماوية كلها . . . (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) .

« . . . التوحيد إذن دين الأنبياء جميعاً ، وهو أقوى وحدة جامعة بين رسالات الله سبحانه وتعالى إلى خلقه . . .

« . . . ووحدانية الذات الإلهية وعدم مشابهتها للحوادث ، ركن من أركان الوحدانية ، لايسع مؤمناً أن يجهله ، ولا يعتبر موحداً من لايؤمن به ، وقد اتفق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العلماء على أن الله تعالى منزه عن أن يكون مُتَّصفاً بما تتصف الحوادث به، فليس له يد كأيدى الناس ، ولا عين كعيونهم ، ولا وجه كوجوههم .

الله هو الخالق الفعال :

« . . . والعقيدة الإسلامية (فى ركنها الثانى) تقوم على أن الله تعالى خالق كل شىء وأنه تعالى فعال لما يريد ، وأنه لا يمكن أن يقع فى ملكه إلا ما يشاؤه ، ولا مشيئة فى تسيير هذا الوجود لسواه، ولكن ذلك لا يمنع أن العبد مسؤول عما يفعل، ومجزىّ بما يفعل إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر ، وأنه تعالى الحكم العدل اللطيف ، وأنه سبحانه كلف كل التكليفات ، والعبد مختار بالقدر الذى يتحمل به تبعة ما يفعل ، وهو يحس بأنه يفعل ما يفعل مريداً مختاراً . هذا ما تقرره النصوص القرآنية ، وما وضحته الأحاديث النبوية ، وهو ما لا يصح لمسلم أن يجهله » .

الصحابة والقدر :

« وكان الصحابة يؤمنون بقدرة الله تعالى ، وبأنه خالق كل شىء ، ويؤمنون بالقدر ولا يخوضون فيه ، بل إذا جاء القدر أمسكوا . . ولقد سأل أحد الناس الإمام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكرّم الله وجهه عن القضاء والقدر وصلته بالجزاء ، فأجابه بما يزيل الشبهة من غير خوض ، ثم ختم كلامه بقوله :

« إن الله أمر تخييراً، ونهى تحذيراً ، وكلف تيسيراً ، ولم يُعص مغلوباً ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار » .

الإمام أبو حنيفة والقدَر :

« ولقد قال الإمام أبو حنيفة رضى الله تبارك وتعالى عنه فى القدر : هذه مسألة قد استعصت على الناس فأنّى يطيقونها ، هذه مسألة مقفلة قد ضلّ مفتاحها ، فإن وجد مفتاحها علم ما فيها ، ولم يفتح إلا بمخبر من الله تعالى ويأتيه ببينة وبرهان » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول فضيلة الشيخ أبو زهرة :

« وإن الذى يستخلص من كلام إمام الهدى علىّ بن أبى طالب الذى نقلناه آنفًا ، أن علينا أن نطيع الله تعالى فيما أمرنا به ، وأن نجتنب مانهانا عنه ، وحسبنا فى ذلك أننا نعلم ونحس ونشعر بأننا مختارون فيما نفعل ، وأننا فى استطاعتنا أن نفعل وألا نفعل ، وأنه يكفى ذلك لنشعر بما يجب علينا ، ومالا يصح لنا ، إن الاشتغال عن ذلك بتعرّف أمر مغلق قد ضاع مفتاحه لايجدى فتيلا » .

ولقد قال فى ذلك الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه :

« إن الله تعالى أراد بنا شيئًا ، وأراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا » .

« فهو رضى الله عنه يندّد بالذين ينصرفون عن التكليف إلى الكلام فيما كتبه الله علينا من خير أوشر ، والعصاة هم الذين يبررون عصيانهم بما كتبه الله تعالى، ومنهم الذين يثيرون هذه القضية ، ليضعفوا العزائم عن العمل .

« ولقد ذكر القرآن الكريم أن المشركين قد احتجوا على عبادتهم الأوثان بأن الله تعالى لوشاء ألا يعبدوها ما عبدوها، وردّ الله عليهم قولهم بأنهم ما علموا مشيئة الله فيهم وأشركوا لأجلها ، وإليك كلام الله تعالى :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ،قُلْ هَلْ عِنْدَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الحجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) .

« ونرى من هذا أن المشركين والمكذبين جميعًا يسندون ما يفعلونه إلى الله تعالى ، على أساس أن الله تعالى لو شاء ألا يفعلوه ما فعلوه ، وأن الحجة القائمة عليهم ألاّ حجة عندهم على أن الله تعالى أراد لهم ذلك ، ويؤكد سبحانه أن مشيئة الله هى الغالبة (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) ولكن ذلك لا يلقى عنكم التبعة » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبادة الله وحده :

« . . . وانفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق والتكوين يقتضى ألا يعبد سواه ، ووحدانية ذاته وصفاته وأنه ليس كمثله شيء يقتضي ألا يعبد سواه ، لأنه لا يعبد إلا من انفرد بالوجود الكامل، وعلا عن التشبيه والنظير ، والعبادة تكون بالطريق التى بينها سبحانه وتعالى . .

« فلا نعبده بأهوائنا ، بل نعبده بما أوحى به إلى رسوله الأمين . . . . وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وبعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، صار كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هما وحدهما الطريق لمعرفة العبادة لله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم ، « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا من بعدى أبداً ، كتاب الله تعالى وسنتى » .

الأحبار والرهبان :

« وقد نعى الله تعالى على اليهود والنصارى أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وقال تعالى فيهم : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهًا وَاحِدًا لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

« وقد كانو يأخذون دينهم من الأحبار والرهبان ، من غير رجوع إلى أصل الكتاب ، ويعتبرون كلامهم حجة ، من غير أن يبينوا سنده وأصله ، وبذلك كانوا أرباباً من دون الله . . . وصحّ ما قاله الله فيهم : (إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) .

الفقهاء المجتهدون :

« وليس شأن الفقهاء المجتهدين فى الإسلام كشأن هؤلاء ، لأنهم مفسرون مستنبطون للأدلة من الكتاب والسنة ، فإن أصابوا فى الفهم فبتوفيق الله ، وإن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخطأوا فمن أنفسهم ، وليسوا محتكرين للفهم ، بل كل من استوفى شروط الاجتهاد له أن يتعرف الأحكام فى الكتاب والسنة » .

كلمة التقوى :

ويقول فضيلة الشيخ أبو زهرة :

« والكلمة الجامعة للعقيدة الإسلامية هى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وهى التى نرددها فى كل صلاة ، وهى التى كان يدعو بها النبى صلى الله عليه وسلم بدعايته ، وهى التى يدعو إليها كل داع للإسلام ، وهى فَيْصَل التفرقة بين الكفر والإيمان ، وهى الأساس للبناء التكليفى للإنسان .

« والشهادة الأولى « لا إله إلا الله » تضمنت نفيًا وإثباتا ، أوتضمنت قصراً وتخصيصًا ، تضمنت نفى الألوهية عن غيره ، وتضمنت بالاستثناء بعد النفى إثبات الألوهية له .

« والألوهية هى استحقاقه العبادة وحده ، ولكن استحقاق العبودية له لا يكون إلا إذا كان هو المتفضل بالنعم وحده ، فهو الذى أنعم بالوجود ، وشكر النعم واجب بحكم العقل والمنطق .

« والشهادة الثانية « محمد رسول الله » تتضمن الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه رسول من عند الله تعالى رب العالمين ، أرسله لهداية البشر أجمعين ، وأن الإيمان بالرسالة المحمدية يتضمن الإذعان للمعجزة التى أثبت بها رسالته ، والتى تحدى بها الذين خاطبهم أن يأتوا بمثلها ، وأنه لا يمكن لأحد أن يأتى بمثلها : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) .

« ويتضمن الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الإيمان بأن الله تعالى يكلم عباده إمّا بالوحى يوحيه ، وإما بخطابه من وراء حجاب ، وإما برسول من الملائِكَةِ يرسله إليه ، كما قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَر أَنْ يُكَلِّمَهُ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) ، وقال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وتتضمن الشهادة بأن محمداً رسول الله تصديقه فى كل ما أمر به ، وكل ما نهى عنه ، سواء أكان ذلك بياناً للقرآن ، أم كان بياناً لما أوحى الله تعالى به : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) .

طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتصديقه :

« فكل ما قرره النبى صلى الله عليه وسلم يجب الإذعان له ، على أنه حكم الله تعالى ، (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) ، وقال تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) .

« فالشهادة بالرسالة تقتضى لا محالة الإيمان بصدق كل ما جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيجب الإيمان بفرضية الصلاة والزكاة والحج وعدد الصلوات ، ومعانى الحج ومناسكه ، وكونه إلى البيت الحرام ، وكون ركنه الأكبر الوقوف بعرفة ، وكذلك تحريم الربا ، وتحريم الخمر والميسر والزنا ، والإقرار بأن عقوبتها هى ما جاءت فى القرآن الكريم .

« ويعد كافراً من أنكر الأحكام الثابتة فى القرآن ، وكذلك يعد كافراً من ينكر أمراً مما علم من الحقائق الدينية بالضرورة ، وتواتر العلم به جيلا بعد جيل ، من عصر النبى صلى الله عليه وسلم » .

الأمة المحمدية وشريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومابعدها :

ويقول فضيلة الشيخ أبو زهرة :

« وإن أمة محمد الذين يتبعونه حقاً وصدقاً ، هم الذين أحيوا شريعة أبى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأنبياء إبراهيم ، ومن جاء بعده من النبيين من ناحية الأصول المقررة الثابتة التى لا تختلف فيها الأقوام ، ولذلك قال الله تعالى :

(وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) . كما قال تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُر على الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) .

« . . . فالمؤمن بمحمد مؤمن بعيسى ، والمسيحى الذى يدخل فى الإسلام لا يخرج من المسيحية التى جاء بها عيسى عليه االسلام ، ولكنه يدخل فيها كاملة غير منقوصة ، لأنه بَشَّرَ بسيدنا محمد (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ) — ولقد سئل قس دخل فى الإسلام : لم خرجت من المسيحية ؟ فقال : ما خرجت منها ولكنى أدركتها صحيحة ، وسرت فيها إلى كمالها ، وكمالها بالإيمان بمحمد عليه السلام — كما أن كمال الإسلام فى الإيمان بكل السابقين ، بل إن ذلك ضمن أصول الإسلام » .

الإيمان بالغيب :

ويقول فضيلته :

« والإيمان بالبعث والحياة الأخرى قرين الإيمان بالغيب ، لأن البعث ليس أمراً مشهوداً بين أيدينا ، بل هو والحياة الآخرة أمران مغيبان .

« ... ولقد كان الماديون يقيسون قياساً مادياً ، والقرآن الكريم يردّ قولهم بقياس هو المحكم وحده ، فهم ينفون البعث بأن ما يفنى لا يمكن أن يعود ، وقد ذكر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا القياس وَرَدُّهُ فى قوله تعالى : (وضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

مزايا العقيدة الإسلامية :

ويقول العلامة عباس العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام » فى مزايا العقيدة الإسلامية :

« وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول ، لأنها تشمل الأمم الإنسانية جميعًا ، كما تشمل النفس الإنسانية بجملتها من عقل وروح وضمير .

« فليس الإسلام دين أمة واحدة ، ولا هو دين طبقة واحدة ، وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين ، ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المسلطين ، رسالة تشمل بنى الإنسان من كل جنس وملّة وقبيلة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) ـ (قُلْ يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) ـ (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) ـ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

« فهذه عقيدة إنسانية شاملة ، لا تخص بنعمة الله أمة من الأمم لأنها سلالة مختارة دون سائر السلالات ، لفضيلة غير فضيلة العمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والصلاح (يـٰأَيها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [سورة الحجرات .]

وفى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم : " لا فضل لعربىّ على عجمىّ ولا لقرشىّ على حبشىّ إلَّا بالتقوى " .

«وليس للإسلام طبقة يؤثرها على طبقة ، أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالناس درجات ، يتفاوتون بالعلم ، ويتفاوتون بالعمل ، ويتفاوتون بالرزق ، ويتفاوتون بالأخلاق ، (يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [سورة المجادلة] .

(لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) [سورة النساء] .

(وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ) [سورة النحل] .

(هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [سورة الزمر] .

«وإذا ذكر القرآن الضعف ، فلا يذكره لأن الضعف نعمة أو فضيلة مختارة لذاتها ، ولكنه يذكره ليقول للضعيف إنه أهل لمعرفة الله إذا جاهد وصبر ، وأنف أن يسخر لبه وقلبه للمستكبرين ، وإلا فإنه لمن المجرمين :

(يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) [سورة سبأ] .

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَنُرِى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) [سورة القصص] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«وما من ضعيف هو ضعيف إذا صبر على البلاء ، فإذا عرف الصبر عليه ، فإنه لأقوى من العصبة الأشداء . (الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

« فما كان الإله الذى يدين به المسلم إله ضعفاء وإله أقوياء ، ولكنه إله مَنْ يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه أن يكون مع الله ، والله مع الصابرين .

« بهذه العقيدة غلب المسلمون أقوياء الأرض ، ثم صمدوا لغلبة الأقوياء عليهم يوم دالت الدول ، وتبدلت المقادير ، وذاق المسلمون بأس القوة ، مغلوبين مدافعين » .

ويقول كذلك ، رحمه الله ، فى ذلك الكتاب :

« . . فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزه عن لوثة الشرك منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب ، منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية .

«فالله الذى يؤمن به المسلمون إله واحد لم يكن له شركاء (سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

«وما هو رب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة ، ولكنه هو (رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) [سورة الحجرات] .

وهو واحد أحد (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [سورة الإخلاص] .

«لا يؤاخذ إنساناً بذنب إنسان ، ولا يحاسب أمة بجريرة أمة سلفت ، ولا يدين العالم كله بغير نذير (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) [سورة فاطر] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [سورة البقرة] .

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) [سورة الإسراء] .

ودينه دين الرحمة والعدل ، تفتتح كل سورة من كتابه : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) ، (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) [سورة فصلت] ، (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) [سورة الحديد] ، (وَسِعَ رَبِّي كلَّ شَيءٍ عِلماً) [سورة الأنعام] ، (وَهوَ بكلِّ خلْقٍ عَلِيمٌ) سورة يس .

« . . . فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذى ينكر العصبية ، ومن جوف بلاد القبائل والعشائر خرج الدين الذى يدعو إلى إله واحد (رب العالمين) ، ورب المشرق والمغرب ، ورب الأمم الإنسانية جمعاء بغير فارق بينها غير فارق الإيمان والصلاح » .

«فالله رب العالمين مالك يوم الدين، لم يكن نسخة محرفة من صورة الله فى عقيدة من العقائد الكتابية ، بل كان هو الأصل الذى يثوب إليه من ينحرف عن العقيدة فى الإله ، كأكمل ما كانت عليه ، وكأكمل ما ينبغى أن يكون » .

مزايا الرسالة المحمدية :

ويتعرض العلامة العقاد لنبوءة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول رحمه الله:

« . . . إن النبوءة الإسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة ، كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بنى الإنسان فى الإله .

« وما نحسب أن النبوة تعظم بكرامة قط أكرم لها من التوكيد بعد التوكيد فى القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول ، غير مشروطة بما غبر فى الأوهام ، من قيام النبوة كلها على دعوى الخوارق والإنباء بالمغيبات :

(وَيَقولون لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِهِ فَقلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلهِ فَانْتَظِرُوا إِنى مَعَكمْ منَ الْمُنتظِرِينَ) [سورة يونس] .

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الْغَيْبَ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [سورة الأعراف] . (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) [سورة الأنعام] . (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ) سورة الأنعام ، فما النبوة بقول ساحر ، ولا يفلح الساحرون ، وما النبي بكاهن ولا مجنون » .

كرامة التكاليف الشرعية :

ويتعرض العلامة العقاد للإنسان، وماشرفه الله به فى التكليف، فيقول رحمه الله :

« ...وارتفاع الإنسان وهبوطه للإنسان منوطان بالتكليف، وقوامه الحرية والتبعة، فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليقة، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين ، وهذه هى الأمانة التى رفعته مكاناً فوق مكان الملائكة ، وهبطت به مقاماً إلى زمرة الشياطين :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) [سورة الأحزاب] . (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) [سورة القيامة] .

« وبهذه الأمانة ارتفع الإنسان مكاناً علياً فوق مكان الملائكة ، لأنه قادر على الخير والشر ، فله فضل على من يصنع الخير ، لأنه لا يقدر على غيره ، ولا يعرف سواه ، (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَه بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) [سورة الإسراء] .

« وبهذه الأمانة هبط الإنسان غروراً وسرفاً إلى عداد الشياطين (وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) [سورة الأنعام] . (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) [سورة الإسراء] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« . . . فهذا الإنسان يتردى من أحسن تكوين إلى أسفل سافلين ، ولا يزال فى الحالين إنساناً مكلفاً ، قابلا للنهوض بنفسه بعد العثرة ، قابلا للتوبة بعد الخطيئة ، مُحاسباً بما جنته يداه ، غير محاسب بما جناه سواه (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى) [سورة النجم] . (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) [سورة الإسراء] . (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) [سورة الأنعام] . (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) [سورة التين] .

« هو مخلوق مكلف ، ذلك جماع ما يوصف به الإنسان ، تمييزاً من العجماوات ، وتمييزاً من الأرواح العلوية على السواء .

« ولهذا كان فى أحسن تقويم ،

« ولهذا يرتد إلى أسفل سافلين ،

« وقوام التقويم الحسن : الإيمان ، وعمل الصالحات ، وسبيل الارتداد إلى أسفل سافلين مطاوعة الهوى ، والغرور ، والسرف ، وطغيان الغنى ، ومنع الخير ، والهلع مع البلاء ، والعجلة مع الضعف والإغراء .

« . . . ولعل الصعوبة الكبرى إنما تساور العقل فى فهم قوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) ، فلم لا يشاء الله أن توتى كل نفس هداها على السواء ؟ تذليل الصعوبة فى الجواب نفسه ، فإن الهداية إذا ركبت فى طبائع الناس كما تركب خصائص الأجسام على السواء بين كل جسم وجسم ، فتلك هى الهداية الآلية التى لا اختلاف بها بين مدارك الأرواح ولوازم الأجسام المادية ، ومن اختار ذلك فإنما يختار لنوع الإنسان منزلة دون منزلته التى كرمته ، وفضلته على سائر المخلوقات .

« فالعدل فيما اختاره الله للإنسان أعم وأكرم مما يختاره الإنسان لنفسه إذا هو آثر الهداية التى تسوى بينه وبين الجماد » .

أقول ، ويؤخذ مما قرره الإمام أبو بكر الكلاباذى فى كتابه « التعرف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لمذهب أهل التصوف » أن الله خالق لأفعال العباد كما هو خالق لأعيانهم (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) ، وكل ما يفعلونه من خير وشر ، فبقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته ، ولولا ذلك لم يكونوا عبيدًا ولا مربوبين ولا مخلوقين ، يقول تعالى : (قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) ، ويقول : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) ، وقد قال سيدنا عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل فيه ، أعلى أمر قد فرغ منه أو أمر مبتدأ ، فقال : « على أمر فرغ منه » . فقال عمر : أفلا نتكل وندع العمل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ، « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

ويقول صاحب جوهرة التوحيد :

فخالق لعبده وما عمـــل ... موفق لمن أراد أن يصل
وخاذل لمن أراد بُعـــده ... ومنجز لمن أراد وعـــــده
فوز السعيد عنده فى الأزل ... كذا الشقى ثَمّ لم ينتقل

هوى النفس وضرره :

أقول : ومطاوعة هوى النفس هو شر ما يصيب الإنسان ، فقد حذرنا الله من هواها ، ونصحنا أن ننهاها ، وبيّن لنا أنها أمارة بالسوء ، أى شديدة الإمرة ، كما بيّن لنا ما سيكون يوم القيامة من ربح مخالفتها وخسارة مطاوعتها فى مثل قوله تعالى فى سورة النازعات : (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) ، وشتان بين العقاب والثواب .

وينصحنا سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فيقول : حظ النفس فى المعصية ظاهر جلىّ ، وحظها فى الطاعة باطن خفىّ ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه ، كما يقول : إذا التبس عليك أمران ، فانظر أثقلهما على النفس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاتبعه ، فإنه لايثقل عليها إلا ما كان حقًّا ، ويقول كذلك : إنما تحتاج إلى معالجة نفسك فى الابتداء ، فإذا ذقت المنة ، جاءت معالجة النفس اختياراً ، فالحلاوة التى كنت تجدها فى المعصية ترجع تجدها فى الطاعة .

أقول : ولا يخفاك أن الشيطان عدو مبين ، ومن آثار عداوته أنه يزين للنفس حب الشهوات ، ليعصى العبد بها ربه ، فيشارك الشيطان فى المعصية ، وقد حذّرنا الله منه ومن كيده فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ، وتقتضى عداوته أن نخالفه اتقاء لشره ، وقد صوّر الله عاقبة مطاوعته أقوى تصوير ، وكشف لنا أنها تنحط بنا إلى خسة الحيوان فى قوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

ويصور لنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلاف الطبائع وتباينها فى قبول دعوة الحق فيقول صلى الله عليه وسلم : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به ، فعَلِم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » جعلنا الله وإياك ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

تفسير وحدانية الذات :

وقد نقل فضيلة الشيخ أبو زهرة عن الإمام الأشعرى رضى الله عنه تفسيره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوحدانية الذات فى كتابه مقالات الإسلاميين فقال :

«إن الله واحد أحد ، ليس كمثله شىء، وهو السميع البصير ، وليس بجسم ولاشبح ، ولاجثة ولاصورة ، ولالحم ولادم ولاشخص، ولاجوهر ولاعرض ولابذى لون ولا طعم ، ولا رائحة ولامحسة ، ولابذى حرارة ولابرودة ، ولا رطوبة ولايبوسة ، ولا طول ولاعرض ولاعمق ، ولا اجتماع ولاافتراق ، ولابذى أبعاض أو أجزاء ، ولا جوارح ولا أعضاء، وليس بذى جهات ، ولابذى يمين وشمال، وأمام وخلف ، ولا يحيط به مكان ، ولايجرى عليه زمان ، ولاتجوز عليه المماسة أو العزلة ، ولا الحلول فى الأماكن ، ولايوصف بشىء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولايوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات ، وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود ، لاتدركه الحواس ، ولايقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولاتحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير شبيه له .

« ولم يزل أولا سابقًا متقدمًا للحادثات ، موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل حيًّا قادراً ، ولا تحيط به الأوهام ، شىء لاكالأشياء ، عالم قادر حىّ لا كالعلماء القادرين الأحياء ، وأنه القديم وحده ، ولا إله سواه ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولامعين على إنشاء ما أنشأ ،وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شىء بأهون عليه من خلق شىء آخر ، ولا بأصعب عليه منه ، ولايجوزعليه احتراز المنافع ، ولاتلحقه المضار ، ولايناله السرور واللذات ، ولا يصل إليه الأذى والآلام ، ليس بذى غاية فيتناهى ، ولايجوز عليه الفناء ، ولايلحقه العجز والنقص ، تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء .

المتشابهات فى القرآن الكريم :

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران : (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) .

ويقول العلماء إن المتشابه فى القرآن الكريم نوعان : متشابه لفظى وهى الحروف التى فى أوائل السور ، ومتشابه معنوى كقوله تعالى : (يَدُ اللهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ، وقوله تعالى : (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) ، وقوله تعالى : (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ) ، وقوله تعالى : (الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) إلخ .

وقد قال السلف : نحن نؤمن بما قال الله على ما أراد الله من غير تأويل ، أما رأى الخلف فهو التأويل بمعنى أن اليد تطلق على القدرة ، والوجه على الذات إلخ . . ولكن اتفق السلف والخلف على نفى التشبيه عن الله تعالى ، استنادًا إلى قوله سبحانه : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ، وهى آية نفت التشبيه بحرفى الكاف والمثل ، فكأنه تعالى يقول : ليس كهو شىء ، وليس مثله شىء ، وكذلك يقول تعالى : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ، كما يقول جل جلاله : (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) ، والقاعدة التى نخرج بها من كل ما تقدم هى : كل ماخطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك ، والأسلم لنا والحالة هذه أن نقول : نؤمن بالمتشابهات)على ما أراد الله منها .

وقد سئل الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه : لماذا تركت علم الكلام — أى الكلام فى التوحيد — إلى الفقه ؟ فقال رضى الله عنه : « إن الخطأ فى العقيدة يرمى صاحبه بالكفر ، أما الخطأ فى الفقه فإن صاحبه يرمى بالمخالفة » .

وجاء فى حاشية الإمام الباجورى على الجوهرة : سأل رجل الإمام مالكاً عن قوله تعالى : (الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ،فأطرق رأسه مليًّا ثم قال :الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أظنك إلا ضالاً ، فأمر به فأخرج .

وسأل الزمخشرى الإمام الغزالى عن الآية المذكورة فأجابه بقوله :

إذا استحال أن تعرف نفسك بكيفية أو أينية ، فكيف يليق بعبوديتك أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصفه تعالى بأيْن أو كيف وهو مقدّس عن ذلك ثم جعل يقول :

قل لمن يفهم عنى ما أقول ... قصر القول فذا شرح يطول
ثَمّ سرٌّ غامض من دونه ... قصرت والله أعناق الفحول
أنت لاتعرف إياك ولاتد ... رك من أنت ولا كيف الوصول
لا ولاتدرى صفات ركبت ... فيك حارت فى خفاياها العقول
أين منك الروح فى جوهرها ... هل تراها فترى كيف تجول
وكذا الأنفاس هل تحصرها ... لا ولا تدرى متى عنك تزول
أين منك العقل والفهم إذا ... غلب النوم فقل لى ياجهول
أنت أكل الخبز لا تعرفه ... كيف يجرى منك أم كيف تبول
فإذا كانت طوياك التى ... بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدرى من على العرش استوى ... لاتقل كيف استوى كيف النزول
كيف يحكى الرب أم كيف يرى ... فلعمرى ليس ذا إلا فضول
فهو لا أيْن ولا كيْف له ... وهو رب الكيف والكيْف يحول
وهو فوق الفوق لا فوق له ... وهو فى كل النواحى لا يزول
جل ذاتاً وصفات وسما ... وتعالى قدره عما تقول

السادة الصوفية وتوحيد الله تعالى :

أقول ومما قاله السادة الصوفية فى التوحيد :

إنْ قُلْتَ متى ، فقد سبق الوقت كونه . .

وإنْ قُلْتَ أين فقد تقدّم المكان وجوده . . .

لاتجتمع صفتان لغيره فى وقت ، ولا يكون بهما على التضادّ ، فهو باطن فى ظهوره ، ظاهر فى استتاره ، فهو الظاهر الباطن ، القريب البعيد ، امتناعاً بذلك عن الخلق أن يشبهوه . .

ليس لذاته تكييف ، ولا لفعله تكليف . .

لا تدركه العيون ، ولاتهجم عليه الظنون ، ولا تتغير صفاته ، ولا تتبدل أسماؤه ، لم يزل كذلك ، ولايزال كذلك ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأجمعوا على أن القرآن كلام الله تعالى على الحقيقة ، وأنه ليس بمخلوق ولا محدث ولاحدث ، وأنه مثلو بألسنتنا ، مكتوب فى مصاحفنا ، محفوظ فى صدورنا ، غير حال فيها ، كما أن الله تعالى معلوم بقلوبنا ، مذكور بألسنتنا ، معبود فى مساجدنا ، غير حال فيها .

وأجمعوا على أنه تعالى يُرى بالأبصار فى الآخرة (أى بلا إحاطة كما سيأتى) وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين ، لأن ذلك كرامة من الله تعالى ، لقوله : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) ، وجاءت الرواية بأن الزيادة هى الرؤية : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ؛ فى حين يقول فى الكافرين : (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ). وقوله تعالى: (لَا تُدرِكُهُ الْأَبْصَارُ) فى الدنيا ، كذلك فى الآخرة ، وإنما نفى الله الإدراك بالأبصار ، لأن الإدراك يوجب كيفية وإحاطة ، فنفى ما يوجب الكيفية والإحاطة دون الرؤية التى ليست فيها كيفية وإحاطة . ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه تعالى ، لكان سؤال موسى عليه السلام : (أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) جهلا وكفرًا ، ولما علق الله تعالى الرؤية بشريطة استقرار الجبل بقوله : (فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) وكان ممكناً فى العقل استقراره لو أقره الله .

وقالوا فى هذا المقام إن الله تعالى اطلع على قلوب خلقه ، فوجد أشوقها إليه قلب مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعجل له الرؤية فى الدنيا ليلة المعراج ، قبل أن يراه المؤمنون فى الآخرة ، فخص من بين الخلائق بهذه الرؤية ، كماخص سيدناموسى عليه السلام بالكلام ، واحتجوا بخبر ابن عباس وأسماءوأنس رضى الله عنهم وينوّه سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى رضى الله عنه بتلك الرؤية فى قوله :

بالعين قد شاهدته متفردا ... فالعين فلتنعم بهاتيك النعم
أكرومة لك لا تضاهى رفعة ... مخبوءة لك يا مقرب فى القدم

ويقول المغفور له الشيخ الباجورى فى حاشيته على جوهرة التوحيد : وقد نفت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيدة عائشة رضى الله عنها وقوع الرؤية للنبى صلى الله عليه وسلم ، لكن قدم عليها ابن عباس لأنه مثبت لأنه رأى ربه سبحانه وتعالى بعينى رأسه وهما فى محلهما ، خلافاً لمن قال حولا لقلبه ، والقاعدة (أى الأصولية) أن المثبت مقدم على النافى ، حتى قال معمر بن راشد : ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس . وأضاف الشيخ رحمه الله : وكان صلى الله عليه وسلم يراه تعالى فى كل مرة من مرات المراجعة [انظر التفصيل فى مبحث الإسراء والمعراج فى المباحث التالية] .

وجاء فى الحاشية المذكورة كذلك :

أما رؤيته تعالى منامًا ، فنقل عن القاضى عياض أنه لا نزاع فى وقوعها وصحتها ، فإن الشيطان لا يتمثل به تعالى كما لا يتمثل بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وذكر بعضهم الخلاف ، وقال بعضهم إن الشيطان يتمثل بالله دون النبى ، والفرق أن النبى بشر ، فيلزم فى التمثل به اللبس بخلاف المولى سبحانه فأمره معلوم . وحكى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه رأى المولى سبحانه وتعالى فى المنام تسعًا وتسعين مرة وقال : وعزته إن رأيته تمام المائة لأسأليه فرآه فقال : سيدى ومولاى : ما أقرب ما يتقرب به المتقربون إليك ؟ قال : تلاوة كلامى ، فقال : بفهم أو بغير فهم ، فقال : : يا أحمد بفهم وبغير فهم .

أقول وما أوسع فضل الله على عباده من العلماء وغيرهم ، وهو الغنى عنهم وعن عملهم ، وقد دخلت على شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى فى أواخر عمره ، طيب الله ثراه ، فوجدته أبيض الوجه ، مع أنه كان قمحى اللون ، وكان شعر ذقنه كأسلاك الفضة بريقًا ، وعجبت يومها لمنظره الذى كان ينطق بولايته حتى لمن يراه أول مرة دون معرفة سابقة ، وبعد أن سلمت عليه جلست أتطلع إلى أنواره الباهرة ، فإذا به يقول لى فى انكسار واضح : دا ربنا ده عظيم جداً ، إذا كان الواحد يراه تعالى وكأنه نور فى نور ، ويقول : أنا أغفر لعبدى ولا أبالى ، ثم أضاف رضى الله عنه : وصحيح ها يبالى من مين ؟ فعلمت أنه قائم من النوم بعد هذه الرؤيا مباشرة ، وعلمت كذلك أنه قريب الانتقال إلى رضوان الله وهو ما كان ، طيب الله قراره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشيخ الأكبر والتوحيد :

وفى كلمتى الشهادتين : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، يقول سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى رضى الله عنه فى الباب السابع والستين من الفتوحات :

شهد الله لم يزل أزلا أنه لا إله إلا هو الله
ثم أملاكه بذا شهدت أنه لا إله إلا هو الله
وأولو العلم كلهم شهدوا أنه لا إله إلا هو الله
ثم قال الرسول قولوا معى إنه لا إلـه إلا هو الله
أفضل ما قلته وقال به من قبلنا لا إلـه إلا الله

«قال الله جل ثناؤه فى كتابه العزيز : (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ، ثم قال : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله» الحديث ، فقال سبحانه : (وأُولُو العلْمِ) ولم يقل وأولو الإيمان ، فإن شهادته بالتوحيد لنفسه ما هى عن خبر فيكون إيمانًا ، ولهذا الشاهد فيما يشهد به لايكون إلا عن علم ، وإلا فلا تصح شهادته . ثم إنه عز وجل عطف الملائكة وأولى العلم على نفسه بالواو ، وهو حرف يعطى الاشتراك ، ولا اشتراك هنا إلا فى الشهادة قطعًا ، ثم أضافهم إلى العلم لا إلى الإيمان ، فعلمنا أنه أراد من حصل له التوحيد من طريق العلم الفطرى أو الضرورى ، لامن طريق الخبر كأنه يقول : وشهدت الملائكة بتوحيدى بالعلم الضرورى من التجلى الذى أفادهم العلم ، وقام لهم مقام النظر الصحيح فى الأدلة ، فشهدت لى بالتوحيد كما شهدتُ لنفسى ، وأولو العلم بالنظر العقلى الذى جعلته فى عبادى ، ثم جاء بالإيمان بعد ذلك فى الرتبة الثانية من العلماء ، وهو الذى يعول عليه فى السعادة ، فإن الله به أمر ، وسميناه علمًا لكون المخبر هو الله ، فقال تعالى : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ) ، وقال تعالى (وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حين قسم المراتب فى آخر سورة إبراهيم من القرآن العزيز ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلّا الله دخل الجنة » ، ولم يقل هنا « يؤمن » فإن الإيمان موقوف على الخبر وقد قال تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) ، وقد علمنا أن لله عبادًا كانوا فى فترات وهم موحدون علمًا ، وما كانت دعوة الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عامة ، فيلزم أهل كل زمان الإيمان ، فعم بهذا الكلام جميع العلماء بتوحيد الله ، المؤمن منهم من حيث ما هو عالم به من جهة الخبر الصدق الذى يفيد العلم ، لا من جهة الإيمان وغير المؤمن ، فالإيمان لايصح وجوده إلا بعد مجىء الرسول ، والرسول لا يثبت حتى يعلم الناظر العاقل أن ثَمّ إلهًا ، وأن ذاك الإله واحد لابد من ذلك ، لأن الرسول من جنس من أرسل إليهم ، فلا يختص واحد من الجنس دون غيره إلا لعدم المعارض وهو الشريك ، فلا بد أن يكون عالمًا بتوحيد من أرسله وهو الله تعالى . . .

« فإذا قال العالم : لا إله إلاّ الله لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم له : قل لا إله إلا الله ، عن أمر الله ، سمى مؤمنًا ، فإنّ الرسول أوجب عليه أن يقولها ، وقد كان فى نفسه عالمًا بها ، ومخبراً فى التلفظ بها . وعدم التلفظ بها ، فهذه مرتبة العالم بتوحيد الله من حيث الدليل ، فمن مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة بلا شك ولا ريب وهو من السعداء ، فأما من كان فى الفترات فيبعثه الله أمة وحده كقسّ بن ساعدة لا تابع له لأنه ليس بمؤمن (أى لم يكن إيمانه بأخذ الدين عن الرسول) ولا هو متبوع لأنه ليس برسول من عند الله بل هو عالم بالله . . .

« فإذا جاء الرسول وبين يديه العلماء بالله وغير العلماء بالله ، وقال للجميع قولوا : لا إله إلا الله ، علمنا أنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك القول معلم لمن لا علم له بتوحيد الله من المشركين ، وعلمنا أنه فى ذلك القول أيضا معلم للعلماء بالله وتوحيده أن التلفظ به واجب ، وأنه العاصم لهم من سفك دمائهم وأخذ أموالهم وسبى ذراريهم ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " ، ولم يقل حتى يعلموا ، فإن فيهم العلماء ، فالحكم هنا للقول لا للعلم ، والحكم يوم تبلى السرائر فى هذا للعلم لا للقول ، فقالها هنا العالم والمؤمن والمنافق الذى ليس بعالم ولا مؤمن ، فإذا قالوا هذه الكلمة عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها فى الدنيا والآخرة ، وحسابهم على الله فى الآخرة من أجل المنافق ، ومن ترتب عليه حق لأحد فلم يؤخذ منه ، وأما فى الدنيا فمن أجل الحدود الموضوعة ، فإن قول لا إله إلا الله لايسقطها فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأما حسابهم على الله فى الآخرة يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أُجِبْتُمْ فيقولون (لا علم لنا) أى لم نطلع على القلوب (إنك أنت علام الغيوب) **تأكيد وتأييد** لما ذكرنا » .

وما أروع ما يقول سيدى الشيخ الأكبر ، رضى الله عنه بعد ذلك :

قال صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وهى القلب ، وأن محمداً رسول الله حاجب الباب ، وإقام الصلاة المجنبة اليمنى ، وإيتاء الزكاة المجنبة اليسرى ، وصيام رمضان التقدمة ، والحج الساقة[1] ، وربما كانت الصلاة التقدمة لكونها نوراً ، وتكون الزكاة الميمنة لأنها إنفاق يحتاج إلى قوة لإخراج ما كان يملكه عن ملكه ، ويكون الحج الميسرة لما فيه من الإنفاق والقرابين حيث تجتمع بالزكاة فى الصدقة والهدية وكلاهما من أعمال الأيدى ، ويكون الصوم فى الساقة ، فإن الخلف نظير الإمام وهو ضياء ، وهكذا يكون الإيمان الإلهى يوم القيامة ، فيأتى الإيمان يوم القيامة فى صورة ملك على هذه الصفة ، فأهل لا إله إلا الله فى القلب ، وأهل الصلاة فى التقدمة ، وأهل الزكاة وهى الصدقة فى الميمنة ، وأهل الحج فى الميسرة ، وأهل الصيام فى الساقة ، جعلنا الله ممن قام ببناء بيته على هذه القواعد ، فكان بيته « الإيمان » وحدّه من القبلة الصلاة ومن الشمال الصوم ، ومن الغرب صدقة السر ، ومن الشرق الحج ، فلقد سعد ساكنه . . .

« وإنما قال الشارع : حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، ولم يقل محمد رسول الله (يشير إلى الحديث السابق) لتضمن الشهادة بالتوحيد الشهادة بالرسالة ، فإن

---

(١) ساقة الجيش هى مؤخرته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القائل لا إله إلا الله لا يكون مؤمنًا إلا إذا قالها، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قالها لقوله فهو عين إثبات رسالته ، فلما تضمنت هذه الكلمة الخاصة الشهادة بالرسالة لهذا لم يقل قولوا : محمد رسول الله . . .

« واعلم أن التلفظ بشهادة الرسالة المقرونة بشهادة التوحيد (أى فى قول القائل لا إله إلا الله محمد رسول الله) فيه سر إلهى عرفنا به الحق سبحانه ، وهو أن الإله الواحد الذى جاء بوصفه ونعته الشارع ما هو التوحيد الإلهى الذى أدركه العقل، فإن ذلك لا يقبل اقتران الشهادة بالرسالة مع الشهادة بالتوحيد من حيث ما يعلمه الشارع ، ما هو التوحيد من حيث ما أثبته النظر العقلى . . . »

دليل الوحدانية :

يقول كذلك سيدى الشيخ الأكبر فى الباب الثانى والسبعين ومائة فى مقام التوحيد :

« أحد ما مثله أحد بجمال النعت منفرد
الذى قـام الوجود به أمرنا عليـه ينعقـد

« اعلم أن التوحيد التعمل فى حصول العلم فى نفس الإنسان أو الطالب بأن الله الذى أوجده واحد لاشريك له فى ألوهيته ، والوحدة صفة الحق ، والاسم منه الأحد والواحد ، وأما الوحدانية فقيام الوحدة بالواحد ، فالتوحيد نسبة فعل من الموحِّد يحصل فى نفس العالم به أن الله واحد .

« قال تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا) ، وقد وجد الصلاح وهو بقاء العالم ووجوده فدل على أن الموجد له لو لم يكن واحداً ما صح وجود العالم . . .

« وهكذا استدل الخليل عليه السلام فى الأقوال ، فأعطاه النظر أن الأفول يناقض حفظ العالم — فالإله لا يتصف بالأفول ، أو الأفول حادث لطروئه على الآفل بعد أن لم يكن آفلا — والإله لا يكون محلا للحوادث . . . قال تعالى فى قصة إبراهيم هذه : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) ولم يكن له غير هذا ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقوله حجتنا أى مثل حجتنا التى نصبناها دليلا على توحيدنا وهى قولنا (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا) » .

نفى الحلول والاتحاد عن الصوفية :

أقول وقد طعن بعض أهل العلم على الصوفية بأنهم خرجوا على التوحيد الصحيح وقالوا بالحلول والاتحاد ، واستندوا فى اتهامهم هذا إلى ماذهبت إليه طوائف زائغة عن الإسلام تدعى أنها صوفية ، وهؤلاء لا يعنينا من أمرهم شىء . والصوفية الذين نعتد بهم ونعتز ، هم المتمسكون بالكتاب والسنة ، وهؤلاء يجب أن نحسن الظن بعقيدتهم ، لأنهم أهل علم وعمل وحال ، وقد تكون لهم عبارات تدق عن فهم غيرهم ، فيخفى مقصودهم منها على من لم يذق ذوقهم فيرميهم بماهم منه برآء .

فالاتحاد حيث ورد فى كلام السادة الصوفية الصادقين ، لا يقصدون به اتحاد ذات فى ذات ، وحاشا أن يتحد القديم الخالق بالحادث المخلوق ، وإنماهم يقصدون به فناء مراد العبد فى مراد الله تعالى ، كما يقول سيدى على وفا رضى الله عنه :

وعلمك أن كل الأمر أمـــرى هو المعنى المسمى باتحـــاد

وقد قلت فى كتابى « منهاج الصوفية » الذى نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى أغسطس ١٩٦٦ :

ويرمى أعداء التصوف سيدى محيى الدين بن عربى وهو شيخ التصوف الأكبر بالحلول والاتحاد ، مع أنه يقول فى كتابه الفتوحات المكية ما نصه :

« وأعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد الذى يتوهمه بعضهم ، أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شىء ، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها ، وإنما كان القمر مجلاها ، فكذلك العبد ليس فيه شىء من خالقه ولا حل فيه » .

وقال رضى الله عنه شعراً :

« ودع مقالة قوم قال عالمهم بأنه بالإله الواحد اتحدا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاتحاد محال لا يقول بـــه إلاجـَهـُول به عن عقله شردا
وعن شريعته وعن حقيقته فاعبد إلهك لاتشرك به أحدا »

وقد نبه سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى مقدمة كتاب « اليواقيت والجواهر » إلى أن سيدى محيي الدين بن عربى كان متقيداً بالكتاب والسنة ، ويقول :

كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك ، وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلو مراتبه ، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة ، وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه . وأضاف رضى الله عنه : كما أخبرنى بذلك سيدى الشيخ أبو طاهر المغربى نزيل مكة المشرفة ، ثم أخرج لى نسخة الفتوحات التى قابلها على نسخة الشيخ التى بخطه فى مدينة قونية ، فلم أرفيها شيئًا مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات . . .

ويقول كذلك سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى كتاب « لواقح الأنوار القدسية » :

« وقد توقفت حال اختصار الفتوحات المكية فى مواضع كثيرة ، لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة ، فحذفتها من هذا المختصر ، وكنت أظن أن المواضع التى حذفتها ثابتة عن الشيخ محيي الدين ، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين المدنى (المتوفى سنة ٩٥٥هـ) فذاكرته فى ذلك ، فأخرج لى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محيي الدين نفسه بقونية ، فلم أرفيها شيئًا مما توقفت فيه وحذفته ، فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة ، كما وقع له ذلك فى كتاب الفصوص وغيره » .

أقول : وسيدى الشيخ محيي الدين هو القائل : « ما قال بالاتحاد إلاّ أهل الإلحاد ، وما قال بالحلول إلاّ من دينه معلول ، وهو القائل (باب ١٩٩ فتوحات) : القديم لايكون قط محلاً للحوادث ، ولا يكون حالاً فى المحدث . وإنما الوجود الحادث والقديم مربوط بعضه ببعض ربط إضافة وحكم ، لاربط وجود عين بعين ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإن الرب لا يجتمع مع عبده فى مرتبة واحدة أبداً » فهل بعد هذا الكلام الصريح والصحيح يرمون الشيخ الأكبر بالحلول والاتحاد ، وحاشاه .

أما وحدة الوجود التى ينسبها أعداء الدين إلى السادة الصوفية ، ويتهمون بها سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين ، فقد بين أمرها الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله حين قال :

« ينبغى أن يفرق بين وحدة الوجود التى رآها بعض فلاسفة اليونان ووحدة الوجود فى رأى العطار وغيره من الصوفية ، فالفلاسفة يرون أن الروح والمادة شىء واحد ، والصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكن يرون أن هذا العالم الظاهر لاوجود له حقًّا ، وإنما الوجود لله تعالى ، فليس هو العالم ولا العالم هو » .

أقول ومِنْ كلامه تدرك أن الصوفية على عقيدة صحيحة ، وهى أن الله تعالى واجب الوجود ، وهو الذى يمد كل الممكنات بالوجود ، فوجود الممكنات ليس وجوداً ذاتيًّا ، بل هو بإيجاد الله تعالى ، وهو مفهوم وحدة الوجود عند الصوفية ، وشتان بين فهمهم الصحيح وفهم الفلاسفة الخاطئ .

ويقول العارف بالله سيدى مصطفى البكرى فى نفى الحلول والاتحاد فى كتابه : « السيوف الحداد فى أعناق أهل الزندقة والاتحاد » :

دعوى الحلول والاتحاد جهالة والوصل ثم الفصل جل الله
والحق نزه عن خطور خواطر بالبال قد خطرت تعالى الله
واتبع شريعة أحمد خير الورى من حاد عنه ربنا أرداه

وإليك ما قاله الإمام أبو الحسن النورى ، رضى الله عنه :

أما القرب بالذات فتعالى الله الملك الحق عنه ، فإنه يتقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار ، ما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به ، جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل .

فقرب هو فى نعته محال ، وهو تدانى الذوات ، وقرب هو واجب فى نعته ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز فى وصفه يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الفضل باللطف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقول : وقرب الفضل باللطف هذا ، هو مقام فى التصوف يذوقه الخواص من أولياء الله ، ولا يعبرون عنه بألفاظ ، لأنه فوق التعبير ، ويقول فيه الإمام الغزالى رضى الله عنه : يضيق نطاق النطق عنه ، وكل الذى أقوله لكم :

فكان ما كان مما لست أذكره ... فظنّ خيراً ولاتسأل عن الخبر

وقال عنه الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى عنه :

أما طريق الخاصة فطريق مسلوك ، تضمحل العقول فى أقل القليل من وصفه ، وينوه بمقام القرب هذا سيدى الشيخ يوسف النبهانى فى قوله :

لا تسل وصف حبهم فهو سر ... بسوى الذوق ما له إفشـــاء

أقول : ومن ذاق عرف . وأردد قول شيخى وسيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه من إلهامه الفورى الذى نقلناه عنه ، وكان إلهامه يتدفق من عطاء الله تدفق السيل الجارف كما هو مشهور :

شراب الحب يعرف بالمـذاق ... وماكل السُّقاة لـه بسـاق
دعاة الحب أكـثر ماتلاقى ... وقلّ الصادقون فـا تـلاقى
وليس بعـاشق من لا تـراه ... من الشهوات طهّر والنفـاق
إذا ما عشت لا أنسى إلهـى ... به أسمو مـن الأخرى المراقى
يعزّ على ترك الحب عنـدى ... ولو بلغت بى الـروح التراقى
ألا يا ساقى العشـاق مهـلا ... تعال املأ كؤوسك مـن حقاقى
تركت جميع خلق الله دونى ... شغلت عن الخلائق باشتيـاق
ومن عرف المحبة عن يقـين ... محال أن يميـل إلى فـراق

ولتقريب مذاق السادة الصوفية للقارئ العزيز ، ننقل إليه ما قاله سيدى ذو النون المصرى فى مناجاته :

« إلهى ، ما أصغيت إلى صوت حيوان ، ولا إلى حفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنغم طل ، ولا دوىّ ريح ، ولا قعقعة رعد ، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شىء » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقول : أرأيت فى مناجاته كيف فنى عن نفسه و بقى بربه ، فملأ الله عليه فراغ قلبه ، فلم ير آثار الكون فى ذاتها ، بل رأى فيها آيات مولاها ، فحقق ما يوجهنا إليه العارفون فى قولهم : ما خلق الكائنات لتراها بل لترى فيها مولاها .

همة الخواص :

ويحكى لنا سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه أنه رأى امرأة ببعض سواحل الشام قال : فقلت لها : من أين أقبلت رحمك الله ؟ قالت من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ، قلت : وإلى أين تريدين ؟قالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، قلت صفيهم لى ، فأنشأت تقول :

قوم همومهم بالله قد علقت ... فما لهم همم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حسن مطلبهم للواحد الأحد

أقول ، وقد شمل الوصف المتقدم خواص الأُمة المحمدية ، كما شمل أهل الصُّفة ما وصفهم به الله تعالى فى وصاية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بهم فى قوله تعالى فى سورة الكهف : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) . وقد جاءت تلك الوصاية بعد قصة أهل الكهف الذين كانوا فى أُمة سابقة ، وتعلَّقت همتهم بالله تعالى ، فوصفهم سبحانه بقوله فى السورة نفسها : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَنْ شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً. * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رَحمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً) ، وقد احتموا فى الله تعالى فحماهم وآواهم فى رعايته ، وقال سبحانه : (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) ، وشملت رعاية الكلب الذى أحبهم وتعلّق بهم : (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) ، ثم أراهم آية فى رعايتهم حيث أنامهم فى الكهف أكثر من ثلثمائة سنة ، فلما قاموا قالوا : (لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْم) .

وفى قوله تعالى : (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) يقول الإمام القشيرى رضى الله عنه فى « لطائف الإشارات » : أخذ ناهم عن إحساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائق ما كاشفناهم به من شهود الأحدية ، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية .

وفى قوله تعالى : (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ) قال فى إشاراته رضى الله عنه : يقال إنهم فتية لأنهم آمنوا على الوهلة بربهم ،آمنوا من غير مهلة لما أتتهم دواعى الوصلة . ويقال فتية لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا[1] إلى الله .

وفى قوله تعالى : (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قلوبهمْ) يقول رضى الله عنه : لاطفهم بإحضارهم ، ثم كاشفهم فى أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلقاهم أولا التبيين ، ثم رقاهم عن ذلك باليقين . ويقال : (رَبَطْنَا عَلَى قلوبهمْ) بأن أفنيناهم عن الأغيار ، وأغنيناهم عن التفكر بما أوليناهم من أنوار التبصر ، ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكنا فيها من شواهد الغيب ، فلم تسنح فيها هواجس التخمين ولا وساوس الشياطين .

وفى قوله تعالى : (لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذَن شَطَطًا) قال رضى الله عنه : من أحال الشىء على الحوادث فقد أشرك بالله ، ومن قال إن الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً من دونه .

---

(١) الوصول إلى الله معناه الوصول إلى حضرة يشهد فيها الأفاعل إلا الله ، فيذوق ذلك بإحساسه ذوق الواصلين ، كما رأيت فى مناجاة سيدى ذى النون المصرى التى مرت عليك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقول : ولأن الإيمان بالله تعالى وتوحيده سبحانه توحيدًا خالصاً من كل شائبة هو أساس الأعمال الصالحة ولا تقبل بغيره ، فقد قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة الزمر : (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) ولئن كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم فالمقصود به أمته من باب : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

والإيمان به سبحانه يقتضى الإيمان برسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبإخوانه النبيين والمرسلين الذين سبقوه فى الدعوة إلى الله ، وكذلك الإيمان بكل ما جاء به من البعث بعد الموت ، والجنة ، والنار ، والثواب والعقاب ، وكذلك ما أخبرنا به من الغيبيات الأخرى كالملائكة ، والجن ، والعرش ، والكرسى ، والحوض ، والميزان ، وصحف الأعمال . . إلخ لأنه سبحانه وتعالى يقول فى سورة البقرة :

(آلم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الأمور وتركنا كما قال على مثل البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك . نسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباعه ، والتأسى به فى عقيدته ، وأقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، بمنه تعالى وكرمه ؛ وقد ترك لنا من بعده صلى الله عليه وسلم التراث الخالد والنور المبين فى الكتاب والسنة ، فمن تمسك بهما فقد اعتصم بالله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثانى

الكتاب والسنة

منة الله على المؤمنين :

منّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بأعظم الرسل شأناً ، وهو سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً ، وقال تعالى منوّهاً بتلك المنّة فى سورة آل عمران : (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِين) ، فلولا أن الله تعالى أرسله صلى الله عليه وسلم لهدايتنا ما اهتدينا ، ولا تحلينا بسائر مكارم الإسلام التى سعدنا بها فى ديننا ودنيانا أفرادًا وأممًا .

فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم :

وقد زكى الله رسوله العظيم ، وهيأه لحمل عبئه الكبير ، فحلاه بالعلم الذى لا يشوبه جهل ، وبالفضل الذى لاتشوبه نقيصة ، وجمع له بالعلم والخلق غرر الفضائل التى فاق بها الأولين والآخرين ، فنهل منها الناس على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ولغاتهم ما وسعهم أجمعين ، ولا تزال على حالها منهلا عذبًا فراتًا للواردين من أصحاب اليمين والسابقين المقربين .

ومنّ الله بالعلم على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) ، وفى قوله تعالى فى سورة الشورى : (وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى ما الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، وجعل الله من تعليم رسوله صلى الله عليه وسلم آية للمعتبرين فقال تعالى ردًّا على المتشككين فى سورة العنكبوت: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِه مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَن لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُور الَّذِينَ أُوتُو الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

معجزة القرآن الكريم :

وقد بين الله فى تلك الآيات المتقدمة أن رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن بين قومه قارئًا ولا كاتبًا ، ولكنه تلا عليهم ما لم يقرءوا أو يكتبوا مثله، فلا هو بالنثر البيانى المعهود ، ولا هو بالشعر الوجدانى المعروف، بل هو قرآن يفوق فى بيانه كل بيان ، ويهزّ عند سماعه أو تلاوته كل وجدان ، أحكمت آياته ، وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، لم يتردد الجن حين سمعوه أن يقولوا : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَبًا * يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَدًا) ، ولم يتردد كفار مكة حين سمعوه أن يقولوا مع كفرهم به : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ،أما المؤمنون فما وسعهم إلَّا أن يقولوا ماقاله الراسخون فى العلم وحكاه الله تعالى فى سورة آل عمران فى قوله الكريم :(آمَنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عند ربِّنا وما يذَّكَّر إلا أُولو الأَلْبَاب * ربَّنا لا تُزِغْ قُلوبَنَا بعْدَ إِذْ هَدَيتَنَا وهَبْ لنا من لَدُنْك رحْمةً إِنَّك أَنْتَ الوَهَّاب) .

وقد اجتمع فى القرآن الكريم جزالة اللفظة وحُسن المعنى ، لأنه أفصح الكلام وأبلغه ، وكيف لا والكلام عزيز من عزيز ، وعلىّ من علىّ ، وحكيم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من حكيم ، لذلك تحدى الله به الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مفتريات مثله ، أو بسورة من مثله ، وأكد أنهم لا يستطعون ، كما أكد أنهم لن يستطيعوا فقال تعالى فى سورة الإسراء : (قُلْ لَئن اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) ، وقال تعالى فى سورة هود : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ، وقال تعالى فى سورة البقرة : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) .

العرب يعجزون عن تحدى القرآن الكريم :

ولما كان القرآن العظيم نزل بلسان العرب ، وكان العرب أول من تلقاه عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقد عجزوا مع فصاحتهم عن تحدى كلام الله ، حيث وجدوه فوق كلام البشر ، وإن كانت مفرداته من مفرداتهم ، وكلماته من حروفهم ؛ ويقول السيد عبد القاهر الجرجانى (المتوفى سنة ٤٧١هـ) فى مزايا القرآن التى أعجزتهم عن تحديه فى كتابه « دلائل الإعجاز » :

« أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجارى ألفاظه ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة ، وتنبيه وإعلام ، وترغيب وترهيب ؛ ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وبيان .

« وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، أو لفظة ينكرها شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه . أو أحرى أو أخلق ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول ، وأعجز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجمهور ، ونظامًا والتئامًا ، وإتقانًا وإحكامًا لم يدع فى نفس بليغ منهم — ولو حك بيافوخه السماء — موضع طمع . . حتى خرست الألسن أن تدّعى وتقول ، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول » .

ويقول أيضا :

« لولا أن العرب حين سمعوا القرآن ، وحين تُحدُّوا إلى معارضته ، سمعوا كلامًا لم يسمعوا قط مثله ، وأنهم قد رازوا أنفسهم ، فأحسوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه ، أو يقع قريبًا منه — لكان محالا أن يَدَعُوا معارضَته — وقد تُحدوا إليه وقُرِّعوا فيه وطولبوا به — وأن يتعرضوا لشبا الأسنة ، ويقتحموا موارد الموت » .

مثال لبلاغة القرآن :

وكمثل من الأمثلة يفتح لنا ، رضى الله عنه ، آفاق التفكير فى روعة القرآن بالآية الكريمة من سورة هود : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فيقول : « إن مبدأ العظمة فى الآية أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم فى أن كان النداء بـ " يا " دون "أى" نحو "يا أيتها الأرض" ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال " ابلعى الماء " ، ثم اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها — نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل " وغيض الماء " فجاء الفعل على صيغة فُعِلَ الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله " وقضى الأمر " ثم ذكر : ما هو فائدة هذه الأمور وهو "واستوت على الجودى " ؟ ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة " قيل " فى الخاتمة بـ"قيل" فى الفاتحة » ، ثم يقول رضى الله عنه :

« أفترى فى شىء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها — تعلقًا باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى فى النطق ، أم كل ذلك لما بين الألفاظ من الاتساق العجيب ؟ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقول ، وقد حكى الأصمعى أنه أعجب بفصاحة إحدى الفتيات وهى تتكلم ، فقال لها : ما أفصحك ، فقالت : وهل بقيت فصاحة لأحد بعد فصاحة القرآن الكريم ؟ إن آية واحدة من كتاب الله تعالى جمعت أمرين ونهيين ، وخبرين وبشارتين ، هى قوله تعالى فى سورة القصص : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

شرف القرآن :

وحسب القرآن الكريم شرفاً أنه « كلام الله » الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كما سماه الله ووصفه به فى قوله تعالى فى سورة البقرة : (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

وفى قوله تعالى فى سورة التوبة : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) ، وفى قوله تعالى فى سورة فصّلت : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

وكذلك نطقت السنة النبوية الشريفة بفضل القرآن وشرفه فى أحاديث كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال ما رواه الإمام الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » ، وأخرج الدارمى والترمذى من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت يا رسول الله : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولاتلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب منه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق من كثرة الرد ، لا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدى إلى الرشد ، من عَلِمَ علمَه سبق ، ومن قال بهصدق ، ومن حَكَمَ بهعدل ، ومن عمل به أُجِر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

ولعظم شأن القرآن الكريم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على تلقنه وتلقيه من الروح الأمين جبريل عليه السلام ، فطمأنه ربه على جمعه فى صدره وبيانه له فى قوله تعالى فى سورة القيامة : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) .

بداية الوحى :

فيما رواه الإمام الطبرى بسنده عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثى عن بداية الوحى بالقرآن الكريم قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور فى حراء من كل سنة شهراً ، يُطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به — إذا انصرف من جواره — الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعًا أو ماشاء من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله عز وجل فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه فيها ، وذلك فى شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء — كما كان يخرج لجواره — معه أهله، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها ، جاءه جبريل بأمر الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءنى وأنا نائم بنمط[1] من ديباج فيه كتاب[2] فقال : اقرأ ؛ فقلت : ما أقرأ ؟

(١) النمط وعاء كالسفط (سبت) والديباج الحرير .

(٢) وقال بعض المفسرين إن قوله تعالى فى أول سورة البقرة : (آلم . ذلك الكتاب لاريب فيه)=

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فَغَتَّنِي[١] حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ؛ فقلت : ماذا أقرأ ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود إلىّ بمثل ما صنع بى ، قال : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) . . إلى قوله : (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) ، قال : فقرأته ، قال : ثم انتهى ، ثم انصرف عنى ، وهببت من نومى وكأنما كتب فى قلبى كتاباً .

قال : ولم يكن من خلق الله أحد أبغض إلىّ من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت إن الأبعد — يعنى نفسه — لشاعر أو مجنون ، لا تحدث بها عنى قريش أبداً ، لأعمدن إلى حالق من الجبل ، فلأطرحن نفسى منه ، فلأقتلنها ، فلأستريحن .

قال : فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت فى وسط من الجبل ، سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال : فرفعت رأسى إلى السماء ، فإذا جبرئيل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد : أنت رسول الله ، وأنا جَبْرئيل ، قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلنى ذلك عما أردت ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامى ، ولا أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ، ثم انصرف عنى ، وانصرفت راجعاً إلى أهلى ، حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخذها مضيفاً[٢] ، فقالت : يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إلىّ ، قال قلت لها : إن الأبعد شاعر أو مجنون ، فقالت : أعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم ، ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وحسن خلقك ، وصلة رحمك ، وما ذاك يا ابن عم ؟ لعلك رأيت

= يشير إلى الكتاب الذى جاءه به جبريل فى وعاء من حرير .

(١) قال ابن الأثير : الغت والغط سواء ، كأنه أراد : عصرنى عصراً شديداً حتى وجدت منه المشقة ، كما يجد من يغمس فى الماء قهراً .

(٢) مضيفاً أى ملتصقاً بها مائلا إليها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شيئًا ؟ قال : فقلت لها : نعم ، ثم حدثتها بالذى رأيت ، فقالت : أبشر يابن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبىّ هذه الأمة ، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نَوْفل بن أسد ، وهو ابن عمها ، وكان ورقة قد تَنَصَّر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قدّوس ، قدّوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر — (يعنى به جبرئيل عليه السلام) الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بقول ورقة ، فسهل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره ، وانصرف ، صنع ما كان يصنع ، وبدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت ، فقال : يابن أخى ، أخبرنى بما رأيت وسمعت ؛ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء إلى موسى ، ولتكذبنّه ولتؤذينّه ولتُخرَجنّه ، ولتقاتلنّه ، ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرنّ الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه فقبل يا فوخه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

شدة الوحى :

ولا تعجبوا من أن يبلغ تأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأول الوحى ما بلغ ، فقد سمع بالوحى كلامًا لا عهد له به ، ونقله إليه شخص لا يعرفه من قبل ، وقد ضمه إليه بقوة خارقة ، ضغط بها ضغطًا تعب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوة بدنه ورباطة جأشه ، فمن أين جاء ذلك الشخص ؟ وكيف تسلل إلى الغار ليوقظ النائم فيه وحده ؟ وكيف عرف مكانه منفرداً فى قمة الجبل ؟ وكيف يقول للأمى الذى لا يقرأ : اقرأ ؟ وبأى سلطان يأمره أن يقرأ ؟ فلما قال له : ماذا أقرأ ؟ قدم له نمطًا[1] من ديباج فيه كتاب وقال له :

---

(١) النمط وعاء كالسفط (السبت) والديباج الحرير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

الله أكبر ، يقول له : (اقرأ باسم ربك) أى أغناك ربك فى قراءتك عن الأسباب والوسائط التى يحتاج إليها غيرك من البشر ، فهم يتعلمون على يد معلميهم بالقلم الظاهر ، وعلمك ربك بالسرّ الخفىّ والقدرة العلية لتقرأ باسمه ماشاء لك أن تقرأ ، ولتعلم بعطائه ما لم تكن تعلم ، فأغناك العليم الخبير عن المعلمين لتكون له فى ذلك آية كبرى ، لأنك سيد المرسلين ، ورحمته المهداة للعالمين .

وإذا كان الضياء يبهر البصر إذا أسفر فجأة ، فنور القرآن أحرى أن يبهر قلب الرسول الأكرم إذا غشيه فجأة ، وله صلى الله عليه وسلم كل العذر أن يهتز للأمر الذى عراه ، وكيف لايهتز ويرجف فؤاده من كلام الله الذى تخشع الجبال من عظمته وتندك من هيبته ، فقد قال تعالى فى سورة الحشر :

(لَوْ أَنْزَلْنا هٰذا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعًا مُتَصدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

فلا غرابة إذن أن يرجف فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم من عظم الكلام والمتكلم ، فيقول لزوجته أم المؤمنين سيدتنا خديجة رضى الله عنها : زملونى[1] زملونى ، ولا عجب أن يرجف فؤاده الشريف كلما جاءه الوحى بكلام رب العالمين ، فقد حدثت أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها فقالت : رأيته عليه الصلاة والسلام ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليَرْفَضُّ عرقًا . أقول وكيف لايكون ذلك منه ، والله تعالى يقول له فى سورة المزّمّل : (إنا سَنُلقى عَلَيْك قوْلًا ثقِيلاً) ، ولا يُقدِّر ثقل القرآن إلا العلماء بالله ، وليس أعلم بالله من رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويقول تعالى فى سورة فاطر : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

(١) ضعوا على غطاه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وَعَلَانِيَةً يَرْجُون تِجَارَةً لنْ تبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أجورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فضْلِهِ إِنَّهُ غفُورٌ شكُورٌ * وَالَّذِى أَوْحَيْنا إِليْك مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْه إِنَّ الله بعِبَادِهِ لخبيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطفيْنا مِنْ عِبَادِنا فمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالْخيْرَاتِ بإِذْن اللهِ ذَلِك هُوَ الْفضْلُ الْكبيرُ) .

الإمام الباقلانى وإعجاز القرآن :

ومعجزة القرآن الكريم أخلد المعجزات على مر العصور والدهور ، وهى على الدوام تتحدّى كل الأجيال بإعجازها ، وكما أعجزت الأولين أعجزت الآخرين وتعجز اللاحقين ، وهى دالة بذلك الإعجاز الدائم على صدق رسالة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول فى هذا المقام الإمام أبو بكر الباقلانى (المتوفى سنة ٤٠٣هـ) رضى الله عنه فى كتابه « إعجاز القرآن » :

« والقرآن كتاب دلّ على صدق متحمله ، ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها ، وبرهان شهد له برهان الأنبياء المتقدمين ، وبينة على طريقة من سلف من الأولين ، حيّرهم فيه ، إذ كان من جنس القول الذى زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا فيه الغاية ، فعرفوا عجزهم ، كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن فى العلاج ، والوصول إلى أعلى مراتب الطب ، فجاءهم بما بهرهم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وكما أتى موسى بالعصا التى تلقفت ما دققوا فيه من سحرهم ، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم ، وكما سخر لسليمان الريح والطير والجن ، حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة وبدائع اللطف ، ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الأول والآخر وقوفاً واحداً ، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة » .

ويضيف رضى الله عنه قائلا :

« انظر وفقك الله لماهديناك إليه ، وفكر فى الذى دللناك عليه ، فالحقّ منهج واضح ، والدين ميزان راجح ، والجهل لا يزيد الأعمى إلا عَمًى ولا يورث إلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ندماً ، قال تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتوى الَّذِينَ يَعْلمُون وَالَّذِينَ لَا يَعْلمُون إِنَّمَا يَتذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَاب)[١] . . . . . فاحمد الله على ما رزقك من الفهم إن فهمت (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا)[٢] ، وإن أنت علمت فـ (قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بك مِنْ هَمَزاتِ الشَّيَاطِين * وَأَعُوذُ بك رَبِّ أَنْ يَحْضُرُون)[٣] .

« . . ولا يوسوس إليك الشيطان بأنه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية ، وأدرب منك فى الفصاحة أقوام وأى أقوام ، ورجال وأى رجال ، فكذبوا وارتابوا ، لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز ، ولكن اختلفت أحوالهم ، فكانوا بين جاهل وجاحد ، وبين كافر نعمة وحاسد ، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات ، وحائد عن النظر فى الدلالات ، وناقص فى باب البحث ، ومختل الآلة فى وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان ، وغاو تحت حبالة الشيطان ، ومقذوف بخذلان الرحمن ، وأسباب الخذلان ، والجهالة كثيرة ، ودرجات الحرمان مختلفة .

« وهلا جعلت بإزاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامرى فى حُسن إسلامه ، وكعب بن زهير فى صدق إيمانه ، وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا ، على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر أو بحر زاخر ، وقد بينا ألاّ اعتصام إلاّ بهداية الله ، ولا توفيق إلاّ بنعمة الله : (ذلكَ فضْلُ الله يؤتيه من يشاء)»[٤] .

الروحانية الكامنة :

أقول : هذا وتقترن ببلاغة القرآن الظاهرة روحانية كامنة كاملة ، تمد بعلم اليقين ، بل بعين اليقين ، بل بحق اليقين ، ذوى البصائر المؤمنة ، الذين يسارعون

---

(١) سورة الزمر الآية ٩ .
(٢) سورة طه الآية ١١٤ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .
(٤) سورة الحديد الآية ٢١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الخيرات وهم لها سابقون ، أما عُمىُ القلوب فلا يحسون من ذلك شيئاً ولا يهتدون سبيلا ، وما ذنب البستان إذا قصرت فى جنى ثماره ، وما ذنب النهار إذا أغمضت العين عن شهود أنواره ، وهذا ما يفسر لك قوله تعالى فى سورة البقرة : (يُضِلُّ بِهِ كثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُون عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطعُون مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُون فِى الْأَرْض أُولئِك هُمُ الْخاسِرُون) .

وإذا أردت دليلا على تأثّر أسلافك الأولين بروحانية القرآن الكريم ، فاقرأ قوله تعالى فى سورة الزمر : (اللهُ نزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتشابهًا مَثانِىَ تقْشعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِين يَخْشوْن ربَّهُمْ ثُمَّ تلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْر اللهِ ذٰلِك هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَنْ يُضْلِل اللهُ فمَا لهُ مِنْ هَادٍ) ، وكيف لا تتأثر الجلود والقلوب بالقرآن وهو روح ، به تحيا القلوب ؛ وبهداه تنتعش الأرواح وتزدهر ، وشاهدنا قوله تعالى فى سورة الشورى: (وَكذَلِك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ) ، كما أنه نور يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم (وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) ومن أراد الله هداه اهتدى (وَإِنَّكَ لَتهْدِى إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلى اللهِ تَصِير الْأُمُورُ) .

وإذا أردت أن ترى بنفسك كيف تقشعر من القرآن الجلود ، فاقرأه على مكث ورويّة ، وتدبر ما تقرؤه بعقلك وقلبك معًا ، ولا يغب عنك فى سور الشعراء قول الله تعالى : (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِن الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِين) ولا يغب عنك قوله تعالى فى سورة ق : (إِنَّ فى ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ؛ وكيف لا تتأثر روحك بالقرآن وأنت من أهل الإيمان ، وقد تأثرت بتلاوته روح الحيوان ، وإليك البيان، فقد ورد فى الصحاح أن الصحابى الجليل أسيد بن حضير كان يقرأ القرآن من الليل ، وكانت بجواره فرسه ، وكان ابنه يحيى ينام قريبا منها ، فلما قرأ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، ثم قرأ، فجالت الفرس ، فخاف أن تصيب ابنه بسوء ، فحانت منه التفاتة إلى السماء ، فوجد أمثال السحاب تزينها أمثال المصابيح تدنو منه عند قراءته ، فعرف سر اضطراب الفرس ، ولكنه حار فى تفسير تلك الظاهرة حتى لقى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو أصبحت تقرأ لأصبح الناس ينظرون إليها وما تتوارى منهم .

ثم انظر كيف كان تسبيح سيدنا داود عليه السلام ينفذ إلى صخور الجبال وإلى أحاسيس الطيور كما قال تعالى فى سورة الأنبياء: (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالِ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) . وسبحان من قدّر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته ؛ ثم لاتنس أن الحصى سبحت فى كفّ رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ، ويرحم الله سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الكبير (والد شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه) إذ يقول فى تسبيح الحصى :

يدك الكريمة سبحت فيها الحصى ... هل كان ذاك تعجبًا من ذا الكرم

أو من عماية من رميتهم وبهـــا ... فتفرقوا رهبًا وجمعهم انهـــزم

بل لقد حنّ حنين الأطفال (كما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه) جذع النخلة لفراقه صلى الله عليه وسلم وقد كان يستند إليه وهو يخطب ، ثم تحول إلى المنبر حين صنعوه له ، وفى ذلك يقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه :

والجذع حنّ وخارَ إذ فارقتـــه ... فجبرته وخواره عنـــدى نغم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالمـــــرء إن لم تعـــره لك هزة كالجذع فهو مضلل أعمى أصم
أرواحنـــا حنانـــة وقلوبنـــــا أنانة لك والغرام بنـــا اضطرم

الإمام الباقلانى وفضائل القرآن :

وهذا القرآن المفحم بإعجازه اشتمل على أمور كثيرة أجملها الإمام الباقلانى فى قوله :

« وأنت تتبين فى كل ما تصرف فيه من الأنواع أنه على سمت شريف ، ومرقب منيف ، يبهر إذا أخذ فى النوع الرَّبى والأمر الشرعى والكلام الإلهى ، الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت ، وشرف الجبروت ، وما لا يبلغ الوهم مواقعه ، من حكمة وأحكام ، واحتجاج وتقرير ، واستشهاد وتقريع ، وإعذار و إنذار ، وتبشير وتحذير ، وتنبيه وتلويح ، وإشباع وتصريح ، وإشارة ودلالة ، وتعليم أخلاق زكية ، وأسباب رضية ، وسياسات جامعة ، ومواعظ نافعة ، وأوامر صادعة ، وقصص مفيدة ، وثناء على الله عز وجل بما هو أهله ، وأوصاف كما يستحقه ، وتحميد كما يستوجبه ، وأخبار عن كائنات فى التأتى صدقت ، وأحاديث عن المؤتنف[1] تحققت ، ونواة زاجرة عن القبائح والفواحش ، وإباحة الطيبات ، وتحريم المضار والخبائث ، وحث على الجميل والإحسان .

« تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب ، مجلوة عليك فى منظر بهيج ، ونظم أنيق ، ومعرض رشيق ، غير معتاص على الأسماع ، ولا مغلق على الأفهام ، ولا مستكره فى اللفظ ، ولا مستوحش فى المنظر ، غريب فى الجنس ، غير غريب فى القبيل ، ممتلئ ماء ونضارة ، ولطف وغضارة ، يسرى فى القلب كما يسرى السرور ، ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم ، ويضىء كما يضىء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، كالروح فى البدن ، والنور المستطير فى الأفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

---

(١) الائتناف هو الابتداء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علاقة السنة بالقرآن الكريم :

أقول ، ومع أن القرآن الكريم ميسّر للذكر وقريب من الفكر ، فإن الأحكام فيه جاءت مجملة ، تحتاج لبيان وتفصيل ، فعهد الله إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بذلك البيان والتفصيل فى قوله تعالى فى سورة النحل: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقد صدع مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه، وبين لأصحابه رضوان الله عليهم ما أجمله القرآن ، فأخذوا عنه تفاصيل العبادات ، وأحكام الحلال والحرام ، وأفتاهم فيما عرضوه عليه من الحوادث ، وكانوا رضوان الله عليهم لايسألونه إلا عما ينفعهم من الوقائع ، فلم يسألوه عن المسائل المفروضة التى لم تقع بالفعل ، لأن هممهم كانت مقصورة على تنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه سبحانه .

مسلك الصحابة فى العلم والقضاء :

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض صلى الله عليه وسلم ، كلهن فى القرآن : يسألونك عن المحيض ، يسألونك عن الشهر الحرام ، يسألونك عن اليتامى ، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم . قال أبوعمر : ليس فى الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث ، وقال ابن القيم رضى الله عنه فى كتابه « أعلام الموقعين » : ومراد ابن عباس بقوله : ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة المسائل التى حكاها الله فى القرآن عنهم ، وإلا فالمسائل التى سألوه عنها وبين لهم أحكامها بالسنة لاتكاد تحصى ، ولم يكونوا يسألونه عن المقدرات والأغلوطات وعضل المسائل ، ولم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل وتوليدها .

أقول ، ولا عجب أن يسلك سادتنا الصحابة فى تعلمهم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المسلك ، فقد روى ابن وهب قال : حدثنى ابن لهيعة عن لأعرج عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذرونى ما تركتكم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم .

ويؤيد الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم فى إرشاده هذا ، فإنه تعالى يقول فى سورة الحشر : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) . وقال سفيان بن عيينة عن عمرو عن طاوس قال : قال عمر بن الخطاب وهو على المنبر : أُحَرِّجُ[1] بالله على كل امرئ سأل عن شيء لم يكن ، فإن الله قد بين ما هو كائن .

وقد حرص السادة الصحابة كل الحرص على التزام أحكام الكتاب والسنة ، وقال أبو عبيد فى كتاب « القضاء » : حدثنا كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى ، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به ، وإن لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به ، فإن أعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فيه بقضاء ، فربما قام إليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا وكذا ، فإن لم يجد سُنّة سنّها النبى صلى الله عليه وسلم جمع رؤساء الناس فاستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به ، وكان عمر يفعل ذلك ، فإذا أعياه أن يجد ذلك فى الكتاب والسنة سأل : هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء ، فإن كان لأبى بكر قضاء قضى به وإلا جمع علماء الناس واستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به .

وروى ابن القيم بسنده عن أبى مليكة قال : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إن قلت فى آية من كتاب الله برأيى أو بما لا أعلم . وروى بسنده عن ابن سيرين قال : لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبى بكر رضى الله عنه ، ولم يكن أحد بعد أبى بكر أهيب بما لا يعلم

---

(١) أمنع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من عمر رضى الله عنه ، وإن أبا بكر رضى الله عنه نزلت به قضية ، فلم يجد فى كتاب الله منها أصلا ، ولا فى السنة أثراً ، فاجتهد برأيه ثم قال : هذا رأيى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى وأستغفر الله ؛ وإنّ عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر : يا أيها الناس إن الرأى إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبًا ، إن الله كان يريه ، وإنّما هو منّا الظن والتكلف ؛ وروى سفيان الثورى بسنده عن مسروق قال : كتب كاتب لعمر بن الخطاب : « هذا ما رأى الله وما رأى عمر ». فقال عمر : « بئس ما قلت ، قل هذا ما رأى عمر ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر» .

ويشهد إمامنا الشافعى لسادتنا الصحابة بفضلهم فى فهم الكتاب والسنة فيقول فى رسالته « البغدادية » : وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن والتوارة والإنجيل ، وسبق لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفضل ما ليس لأحد بعدهم ، فرحمهم الله ، وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء ، والصالحين ، أدّوا إلينا سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشاهدوه والوحى ينزل عليه ، فعلموا ما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم عامًّا وخاصًّا وعزمًا وإرشاداً ، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا ، وهم فوقنا فى كل علم واجتهاد وورع وعقل ، وأمر استدرك به علم واستنبط به ، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا ، ولم نخرج عن أقاويلهم ، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله .

تعقيب الإمام ابن القيم :

ويقول الإمام ابن القيم تعقيباً على الكلام المتقدم :

« والمقصود أن أحدًا ممن بعدهم لا يساويهم فى رأيهم ، وكيف يساويهم وقد كان أحدهم يرى الرأى فينزل القرآن بموافقته ، كما رأى عمر فى أسارى بدر أن تضرب أعناقهم فنزل القرآن بموافقته ، ورأى أن تحجب نساء النبى صلى الله علية وسلم فنزل القرآن بموافقته ، ورأى أن يتّخذ من مقام إبراهيم مصلى فنزل القرآن بموافقته ، وقال لنساء النبى صلى الله عليه وسلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لما اجتمعن فى الغيرة عليه : (عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْرًا مِنكُن مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) ، فنزل القرآن بموافقته . ولما توفى عبد الله بن أبىّ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوبه فقال : يا رسول الله إنه منافق ، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عليه: (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) .

وقد قال سعد بن معاذ لما حكّمه النبى صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة إنى أرى أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذرياتهم ، وتغنم أموالهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سمـٰوات » .

ويضيف ابن القيّم قائلا : « وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنزلة ، أن يكون رأيهم لنا خيراً من رأينا لأنفسنا ، وكيف لا وهو الرأى الصادر من قلوب ممتلئة نوراً وإيمانًا وحكمة وعلمًا ومعرفة وفهمًا عن الله ورسوله ونصيحة للأمة ، وقلوبهم على قلب نبيهم ، ولا واسطة بينهم وبينه ، وهم ينقلون العلم والإيمان من مشكاة النبوة غضًّا طريًّا لم يَشُبْهُ إشكال ، ولم يشبه خلاف ، ولم تدنسه معارضة » .

أقول : وحقّ للسادة الصحابة أن يتلقفوا العلم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل عناية ، فقد وثقوا أن علمه كله إنما هو من عند الله ، وقد قال تعالى واصفاً علمه فى سورة النجم : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى) ، كما طمأنهم تعالى على أنه ينظر فى الأمور بنور الله ، فقال تعالى فى سورة النساء : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَق لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) ، كما قال تعالى فى السورة نفسها : (فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) ، وقد أخرج الحاكم وصححه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قلت : يا رسول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله ، أتأذن لى فأكتب ما أسمع منك ؟ قال : «نعم» ، قلت : فى الرضا والغضب قال : «نعم ، فإنه لا ينبغى أن أقول عند الرضا والغضب إلاَّ حقًّا» .

وأخرج الطبرانىّ عن معاذ بن جبل قال : ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه أو يقظته فهو حق ؛ وأخرج الشيخان عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقًّا فإن الشيطان لا يتمثل بى» فقد خص صلى الله عليه وسلم بأن رؤيته فى المنام صحيحة ، ومنع الشيطان من أن يتصور فى خلقته لئلا يكذب على لسانه فى النوم ، كما منع أن يتصور فى صورته فى اليقظة إكراماً له صلى الله عليه وسلم ؛ وفى شرح « مسلم » للنووى : لو رأى شخص النبى صلى الله عليه وسلم يأمره بفعل ما هو مندوب إليه ، أو ينهاه عن منهى عنه ، أو يرشده إلى فعل مصلحة ، فلا خلاف أنه يستحب له العمل بما أمر به .

ومع ما آتى الله تعالى نبيّه الكريم من العلم وشهد له به فى قوله سبحانه فى سورة النساء : (وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) ، فإنه اختار له دعوة يدعو ربه بها فقال تعالى : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا) ، ليرجع إلى ربه صلى الله عليه وسلم فى الاستزادة من العلم الربانىّ الذى لا حدَّ له ، وذلك ما يدلنا على أن علمه صلى الله عليه وسلم كان فى زيادة على الدوام ، يشهد بها قوله تعالى : (وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) ، وكلمات الله التى يعلم بها أنبياءه وأصفياءه ليس لها نهاية ، فقد قال تعالى فى سورة الكهف : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) ، كما قال تعالى فى سورة البقرة : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ) ، وقال سبحانه فى سورة الجمعة ممتنًّا بعلم رسول صلى الله عليه وسلم ، على جيل الصحابة والأجيال التى تلتهم فى الأمة المحمدية : (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الْكِتَاب وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِين * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْل الْعَظِيمِ) .

مواقف السنة من القرآن :

هذا ولا تقف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تفسير القرآن وبيانه ، وإنما السنة مع القرآن — كما يقول الإمام ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » — على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون موافقة له من كل وجه ، فيكون توارد القرآن مع السنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها .

الثانى : أن يكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له .

الثالث : أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرمة لما سكت عن تحريمه .

وقد أضاف رضى الله عنه يقول :

ولا تخرج السنة عن هذه الأقسام ، فلا تعارض القرآن بوجه ما ، فما كان منها زائداً على القرآن ، فهو تشريع مبتدأ من النبى صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته ، وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله ، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله ، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايطاع فى هذا القسم لم يكن لطاعته معنى ، وسقطت طاعته المختصة به ، وقد قال تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) .

ويزيدنا رضى الله عنه بياناً فيقول : وكيف يمكن أحداً من أهل العلم ألا يقبل حديثاً زائداً على كتاب الله، فلا يقبل حديث تحريم المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم من النسب ، ولا حديث منع الحائض من الصوم والصلاة . . . وقد أخذ الناس بحديث : « لايرث المسلم الكافر ولا الكافر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلم » ، وهو زائد على القرآن ، وأخذوا كلهم بحديث توريثه صلى الله عليه وسلم بنت الابن السدس مع البنت ، وهو زائد على ما فى القرآن ، وأخذوا بحديث : « من قتل قتيلا فله سلبه » ، وهو زائد على ما فى القرآن من قسمة الغنائم . . . .

وانتهى الإمام ابن القيم بعد التفصيل إلى قوله : فلو ساغ لنا رد كل سنة زائدة كانت على نص القرآن ، لبطلت سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها إلا سنة دل عليها القرآن ، وهذا هو الذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأنه سيقع ولابد من وقوعه .

وهو يشير بذلك إلى حديث المقدام بن معديكرب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطة مال المعاهد » ، وفى لفظ آخر : « يوشك أن يقعد الرجل على أريكته فيحدث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله » ، قال الترمذى : حديث حسن ، وقال البيهقى : إسناده صحيح ؛ وقال صالح ابن موسى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى قد خلفت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتى ، ولن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض » .

البيان النبوىّ :

ويعلمنا الإمام ابن القيم رضى الله عنه أن البيان من النبى صلى الله عليه وسلم أقسام :

أحدها : بيان نفس الوحى بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيًّا .

الثانى : بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلى ذلك ، كما بين أن الظلم المذكور فى قوله تعالى : (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) هو الشرك ، وأن الحساب اليسير هو العرض ، وأن الخيط الأبيض والأسود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو بياض النهار وسواد الليل ، وأن الذى رآه نزلة أُخرى عند سدرة المنتهى هو جبريل ، كما فسرقوله :(أَوْ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) أنه طلوع الشمس من مغربها ، وكما فسر قوله: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) ـ بأنها النخلة . . وكما فسر إدبار النجوم بأنه الركعتان قبل الفجر ، وأدبار السجود بأنه الركعتان بعد المغرب ونظائر ذلك .

الثالث : بيان بالفعل ، كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله .

الرابع : بيان ما سئل عنه من الأحكام التى ليست فى القرآن ، فنزل القرآن ببيانها ، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره .

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحى وإن لم يكن قرآناً ، كما سئل عن رجل أحرم فى جبة بعدما تضمخ بالخلوق ، فجاء الوحى بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق .

السادس: بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال ، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك .

السابع : بيانه للأمة جواز الشىء بفعله هو له ، وعدم نهيهم عن التأسى به .

الثامن : بيانه جواز الشىء بإقراره لهم على فعله وهو يشاهده ، أو يعلمهم يفعلونه .

التاسع : بيانه إباحة الشىء عفواً بالسكوت عن تحريمه ، وإن لم يأذن فيه نطقاً .

العاشر : أن يحكم القرآن بإيجاب شىء أو تحريمه أو إباحته، ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف ، فيحيل الرب سبحانه وتعالى على رسوله فى بيانه كقوله تعالى :(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ) فالحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأهلية المحل ، فإذا جاءت السنة ببيان ذلك كله لم يكن الشيء منه زائداً على النص فيكون نسخاً له وإن كان رفعاً لظاهر إطلاقه .

حاجتنا إلى السنة النبوية :

أقول : ومما تقدم يبين أن الأمة ملزمة بأحكام الكتاب والسنة ، ولا تستطيع أن تكتفي بالكتاب دون السنة ، وإلاّ كانت عاصية لله الذى فرض عليها طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمر به أو نهى عنه ، وجعل طاعته طاعة له (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) ، وجعل طاعته سبيل الاهتداء للحق ، فقال تعالى فى سورة النور:(وإن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) ، ويقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة الجاثية : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) ويقول تعالى للمؤمنين فى سورة الأعراف : (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) ، كما يقول تعالى فى سورة النساء : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) ؛ وأجمع العلماء على أن رد الأمر إلى الله تعالى هو الرد إلى أحكام كتابه الكريم ، والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرد إليه نفسه فى حياته الشريفة ، وإلى سنته بعد وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، كما بين العلماء أن الله تعالى أعاد الفعل فى قوله سبحانه: (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) إعلاماً للأمة بأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تجب على المؤمنين استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر بأمر صلى الله عليه وسلم— وجبت طاعته مطلقاً ، سواء كان أمره فى الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه كما جاء فى الحديث أوتى القرآن ومثله معه . وبين العلماء كذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن إضافة أولى الأمر إلى الرسول دون إعادة فعل « وأطيعوا » ، يفيد أن طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول وليست مستقلة عنها ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بمعصية فلا سمع له ولا طاعة ، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الطاعة فى المعروف » ، وقال فى ولاة الأمور : « من أمركم بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة » . وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها « أنهم لو دخلوا لما خرجوا منها » ، مع أنهم كانوا يدخلونها طاعة لأميرهم ، وظنّا أن ذلك واجب عليهم ، فقصروا فى الاجتهاد ، وأقدموا على تعذيب أنفسهم ، وحملوا عموم الطاعة على ما لم يرده شرع الله .

وقال العلماء كذلك إن الآية السابقة تفيد أن أهل الإيمان قد يتنازعون فى بعض الأحكام ، ولا يخرجون بذلك عن الإيمان ، وقد تنازع الصحابة فى كثير من مسائل الأحكام ، وهم سادة المؤمنين وأكملهم إيمانًا ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا فى مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم .

وقالوا أيضاً إن قوله تعالى : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ) نكرة فى سياق الشرط ، تَعُم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين جَلِيِّهِ وَخَافِيهِ ، ولو لم يكن فى كتاب الله وسنة رسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافياً ، لم يأمر بالرد إليه إذ من الممتنع أن يأمر الله تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع ، وقد جعل الله رد الأحكام إلى الله ورسوله من موجبات الإيمان ولوازمه ، وأنه خير للمؤمنين فى عاجلهم وآجلهم ، وقد حظر الله على المؤمنين أن يختاروا قضاء غير قضاء الله ورسوله ، فقال تعالى فى سورة الأحزاب : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً) ، وكيف لا تكون معصية الله ورسوله ضلالا مبيناً وقد جعل الله رفع الصوت على صوته صلى الله عليه وسلم محبطاً للعمل ، فقد قال تعالى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى سورة الحجرات : (يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) .

وإحباط العمل هو الرد إلى الكفر ، انست تراه تعالى يقول فى سورة الزمر : (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ، فإذا كان رفع الصوت فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم محبطاً للعمل ومؤدياً إلى الكفر ، فكيف بتفضيل أهواء النفوس على أحكام الله ورسوله .

الشرع والقوانين الوضعية :

ومن فضل الله على البلاد الإسلامية ، أنها ما زالت تلتزم حدود الله فى أحكام العبادات ، وفى جانب من أحكام المعاملات ، وبخاصة أحكام الأحوال الشخصية والمواريث ، ولكن المستعمرين تركوا فيهم تشريعات وضعية نقلها المستعمرون أيام الاستعمار عن بلادهم ، وهى تختلف عن شرع الله ، وتتفق مع أغراض المستعمرين وأهوائهم ، فبعض تلك التشريعات الوضعية مثلا يبيح الزنا وبيع الخمر والإقراض بالربا... إلخ ، ويعاقب السارق بالحبس ولا يقطع يده كما هو فى حكم الإسلام ، ولا يرجم الزانى المحصن أو يجلد غير المحصن ، ولا يقتل أو يصلب الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً ، لا ، بل زاد المستعمرون الطين بلة وأقاموا أيام الاستعمار القضاء المختلط الذى ميزهم عن أهل البلاد ، وأذكر فى هذه المناسبة بعض ما قاله شيخى العارف بالله المرحوم الشيخ على عقل (توفى ١٩٤٨) : وكان قد سئل أن يأتى ببعض أبيات فورية على قول القائل :

مدحت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا

فقال إلهاماً لوقته من فتح الله عليه ونقلناه عنه :

مدحت رسول الله إذ جاء بالهدى وهذب بالإسلام نفسى وطهرا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أفاض على الدنيا السماحة والندى ... وطاف عليها بالسلام وبشرا
وشابهت الأرض السماء وضاءة ... ألم تر أن الكون بالوحى نوّرا
ورقت بها الأرواح كالروض تزدهى ... صفاء من الإيمان بالحق أثمرا
فلن تعبد الأصنام بعد محمد ... أتعبد والقرآن منه تفجرا
وبدد عنا الجهل والجهل خسة ... وشرفنا التوحيد سرًّا ومظهرا
فيا أمة الإسلام ماذا أصابكم ... أترضون للإسلام أن يتأخرا
تركتم حدود الله وهى سلامة ... وأهملتمو آثار من هذبوا الورى
وفيكم كتاب الله يشرق آية ... وفى حكمه منجى وفى هديه قرى
زعمتم بأن الغرب فجر حضارة ... وما الغرب إلا بالمآثم قد جرى
أباح الربا جهراً وما حرّم الزنا ... وقد حلل الصهباء واستعمر الورى
إذا نحن قلنا ليس فى الغرب حكمة ... تقولون لولا الغرب لن نتحضرا
أرى الغرب لو للعدل قامت حروبه ... لما جال فى أفيائنا وتبخترا
فوالله لا نرقى إلى أوج العلا ... ولن نرزق النصر الذى قد تأخرا
سوى باتباع الشرع فالشرع عزنا ... ونحن بهذا الشرع لن نتقهقرا
فنذكر عهد الأقدمين ومجدهم ... هدى الناس كانوا للحضارة مصدرا
ونذكر خير الخلق يهدى نفوسنا ... ويتلو كتابًا كالمجرة نيرا

ولاخلاف فى أن ما شرعه الله للمسلمين من أحكام العبادات والمعاملات كفيل بصيانة الفرد والجماعة من الخلل ، كما أنه كفيل براحة الحاكم والمحكوم ، وضامن للمجتمع السلام والأمن ، كما ثبت ذلك بالتجربة العملية فى أجيال المسلمين الأولى ، حين عملوا بأحكام الله فى أيام سيادتهم وحريتهم ، وقد هذّبت العبادات أكثرهم ، ومن لم تهذبه العبادات فتعدى حدود الله ، وطغى على حق غيره ، أخذ الحاكم منه الحق بالقصاص الشرعى ، وحمله بالقصاص على الاستقامة ، وكان فى القصاص ردع كاف له ولغيره ، فاستقام الكل طوعًا أو كرهًا ؛ وصدق سبحانه فى قوله الكريم فى سورة البقرة : ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ، وهو قول صادق إلى الأبد لأنه قول العليم الحكيم .

ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه فى تعقيبه على تلك الآية الكريمة : هذا من الكلام البليغ الوجيز ، والمعنى أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ازدجر من يريد قتل آخر مخافة أن يقتص منه فحييا بذلك معًا ، وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر ، حمى قبيلاهما وتقاتلوا ، وكان ذلك داعيا إلى قتل العدد الكثير ، فلما شرع الله القصاص ، قنع الكل ، وتركوا الاقتتال ، فلهم فى ذلك حياة .

ويضيف الإمام القرطبي قائلا :

« اتفق أئمة الفتوى على أنه لايجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان (أى الحاكم) ، وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض ، وإنما ذلك للسلطان أو مَنْ نصبه السلطان لذلك ، ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدى الناس بعضهم عن بعض .

« وأجمع العلماء على أنه يجب على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدى على أحد من الرعية ، إذ هو واحد منهم ، وإنما له مزية النظر لهم كالوصى والوكيل ، وذلك لايمنع القصاص ، وليس بينهم وبين العامة فرق فى أحكام الله لقوله عز وجل : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى) » .

وروى النسائى عن أبى سعيد الخدْرى قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم شيئاً إذ أكب عليه رجل ، فطعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرجون كان معه ، فصاح الرجل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعال فاستقد » قال : بل عفوت يا رسول الله . وروى أبو داود عن أبى فراس قال : خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ألا من ظلمه أميره فليرفع ذلك إلىّ أقده منه ، فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين لئن أدب رجل منا رجلا من أهل رعيته لتقصنه منه ، قال : كيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ؟

وختاماً أقول مفتخراً إن مصر — وطننا العزيز — عنيت من قديم ، وازدادت عناية فى العهد الحاضر ، بخدمة الكتاب والسنة وحفظ تراثهما الخالد ، ومن ينكر على مصر رائِدة المسلمين تلك المجهودات القيمة التى بذلها ويبذلها الأزهر الشريف ، ومجمع البحوث الإسلامية ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومجمع اللغة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العربية ، أو الدعوة إلى المؤتمرات الإسلامية التى عقدت فى السنين الأخيرة بالقاهرة ، وتشاورت فى أمهات المسائل الإسلامية ، وفى طليعتها تقنين الأحكام الشرعية ، لتطبيقها فى البلاد الإسلامية التى استردت حريتها وعزتها ، ونفضت عن نفسها عار الاستعمار وحكم المستعمرين ، واستعادت سلطانها فى حكم شعوبها بشرع الله القويم .

وإليكم ما أوصى به بالنسبة للتشريع الإسلامى المؤتمر الإسلامى الرابع الذى العقد بالقاهرة ممثلا لنحو ثلاثين دولة إسلامية فى المدة من ١٧ من رجب إلى ٢ من شعبان ١٣٨٨ (الموافق ٩ – ٢٤ من أكتوبر ١٩٦٨) :

١ – يوصى المؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بتأليف لجنة من رجال الفقه الإسلامى والقانون الوضعى ، تضطلع بوضع الدراسات ومشروعات القوانين التى تيسر على المسؤولين فى البلاد الإسلامية الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية فى قوانين بلادها كقوانين العقوبات والتجارى والبحرى .

٢ – يدعو المؤتمر المجمع لدراسة القاعدة الإسلامية التى تقرر أنه لايطل دم فى الإسلام ، وأن من قتل ولم يعرف قاتله تدفع ديته من بيت المال .

٣ – يوصى المؤتمر بأن يعمل المجمع على التعريف فى النطاق الدولى بأحكام العقوبات الإسلامية ، والأسس التى قامت عليها ، والنتائج المترتبة على تطبيقها .

أقول : وهذا الصبح الذى أسفر بعد ظلام ليل الاستعمار ، يبشرنا جميعاً نحن المسلمين بنهار مشرق ، نرى الحق فيه واضحًا جليًّا فيما شرع الله لنا من أحكام ديننا الحنيف ، الذى أراد الله إسعادنا به فى أمور ديننا ودنيانا ، ومَنَّ علينا بكماله فى قوله الكريم فى سورة المائدة : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) .

وإليكم فقرات من نور وردت فى رسالة بعث بها السيد الرئيس محمد أنور السادات إلى مؤتمر الدعوة الإسلامية المنعقد فى طرابلس بليبيا ، كما جاءت فى صحيفة الأهرام الصادرة فى ١٦ من شوال ١٣٩٠ ، قال حفظه الله فى تلك الرسالة التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قرأها على المؤتمر السيد محمد توفيق عويضة رئيس وفد بلادنا إلى المؤتمر :

أيها الإخوة ؛ إنكم تجتمعون للتفكير فى أنجح الوسائل للدعوة إلى الإسلام ولتبصير الناس بما يكفله للبشر من حق وسعادة ، ترفرف أعلامها على الأفراد والأسر والعالم بأسره ، وهذا حق للإسلام وواجب عليكم ، لأن الإسلام دعوة عامة لاتنحصر فى مجتمع ، ولا تحتبس فى بيئة ، ولا تقتصر على جنس .

فالدعوة إليه واجب ، لامندوحة للمسلمين أن يقوموا به أفراداً وجماعات وحكومات ، معتمدين على الحكمة والموعظة الحسنة . . .

أيها الإخوة . اسمحوا لى أن أمد بصرى إلى الماضى لأرى كثيراً من الدارسين حاولوا معرفة السر الذى نفخ فى المسلمين الأولين تلك القوى المادية والنفسية ، التى نقلتهم فى أقصر من قرن واحد من القلة إلى الكثرة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الجهالة إلى الحضارة ، فانتشروا فى أرجاء الأرض هداة ودعاة وينابيع للحق والخير والحرية والمساواة ؛ وسادة يذيعون العدل فى الناس ويقضون فى شئونهم بالقسطاس .

« لكن هذه القوة التى حار الدارسون فى الكشف عنها ، ليست سراً غامضاً ولا غيباً محجباً ، لأنها وليدة العقيدة ، وما تتضمنه العقيدة القوية الصحيحة من أعمال صالحة نافعة للفرد وللأمه ، ومن أخلاق عظيمة رباهم الإسلام عليها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوتهم فى كل فضيلة ، فارتفعوا بالإسلام إلى الذروة بين الأمم التى عاصرتهم ، وإلى سيادة العالم سيادة عقيدة ولغة وعلوم وأخلاق وحضارة .

« وإذا كانت عوامل شتى من الاستعمار والجهل والتخلف والفرقة قد حجبت عنهم الرؤية حيناً من الدهر ، فإنهم اليوم قد نهضوا من رقادهم ، ومسحوا عن عيونهم ماغشاها ، فأيقنوا أن مجدهم مرهون بالاعتصام بدينهم ، وأن عزتهم مرتبطة بإعزاز عقيدتهم ، فجعلوا يتنادون إلى الاستمساك بالإسلام ، ويفكرون فى الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيها الإخوة . لن تستطيع الدعوة إلى الإسلام أن تنفصل عن الدفاع عن حُرماته ومقدساته ، لأنها جزء من العقيدة لايتجزأ ؛ ولقد صبر المسلمون طويلا على عدوان إسرائيل حتىٰ ضاق بهم الصبر ، وشكوا إلى العالم من جرائمها فى فلسطين وفى الأرض العربية المحتلة . . . .

أيها الإخوة . أكرر تحيتى لكم ، وأدعو الله وهو نعم المسؤول ونعم المجيب ، أن يكلل برعايته مؤتمركم ، وأن تنجلى اجتماعاتكم عن تخطيط سديد رشيد لأعمال مجيدة يعتز بها الإسلام وفئات الملايين من المسلمين ، الذين يتطلعون إلى نتائج «مؤتمركم المبارك» .

أقول : ويطالع القارئ الكريم فى الباب التالى ، تاريخ الدعوة إلى الإسلام والجهاد فى نشره . فيتبين كيف صبر الرسول صلى الله عليه وسلم وصابر ، وكيف حمل هو وأصحابه أعباء الجهاد بالنفس والمال ، حتى أظهر الله الإسلام على الدين كله ولو كره الكافرون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثالث

الإسلام والجهاد فى نشره

بداية الإسلام :

ظهر الإسلام أول ما ظهر بمكة المكرمة ، حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إليه بأمر ربه : (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * والرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) ، والمدثر أى المغطى بالغطاء ، والرجز هى الأوثان ، ودليله (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) وكان قومه يعبدونها من دون الله ، وكان هو يعاف بفطرته الطاهرة عبادتها ، ويخلو بربه كل عام فى غار حراء بعيداً عن مجتمعهم ، حتى أكرمه الله برسالته للناس كافة ، عربهم وعجمهم ، فكانت أعظم الرسالات وأشملها ، كما كانت خاتمة الشرائع السماوية .

معنى الشهادتين :

وأساس الإسلام كما بينا آنفاً الشهادتان : «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» فينطق بهما لسان المسلم ويعتقدهما قلبه ، فيقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومعنى « أشهد » أى أتحقق وأجزم ، « ولا إله إلا الله » معناها لا معبود بحق إلا الله ، فالسلطان المطلق والسيادة كلها له وحده سبحانه ، ووحدانيته تقتضى ألا يكون له شريك ولا صاحبة ولا ولد ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، فمن عبد غيره فقد كفر . ومن أشرك معه أحداً فقد ضل عن سواء السبيل ، ومن هنا نقول فى الفاتحة : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) أى نخضع ونذل ونعترف بالعبودية لك وحدك ، والشهادة بأن محمداً – صلى الله عليه وسلم – رسول الله معناها إقرار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بـأنه مرسل من ربه ، يبلغ الناس شرع الله ، فـأوامره هى أوامر الله ، ونواهيه هى نواهى الله ، كما قال تعالى فى سورة النجم : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحى) ، والإقرار برسالته صلى الله عليه وسلم يقتضى طاعته فى تلك الأوامر والنواهى ، لأن طاعته هى طاعة الله الذى أرسله كما قال تعالى فى سورة النساء : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) .

التكبير :

وقد كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه كما أمره الله ، فكان انعقاد الصلاة بالتكبير فى قوله : « الله أكبر » ، ومعناها كما بينه السبط الكريم الإمام الحسين بن علىّ ، حين قال له ابن الأزرق : يا حسين ، صف لى إلهك الذى تعبد ، وكان ابن الأزرق على رأس الخوارج الأزارقة فأجابه الإمام الحسين رضى الله عنه : «يابن الأزرق أصف إلهى بما وصف به نفسه ، أكبر من أن يقاس بالناس ، أو يدخل تحت القياس ، أو يدرك بالحواس ، قريب غير ملتصق ؛ بعيد غير مستقصى ، لا إله إلا هو الكبير المتعال » . فقال ابن الأزرق فى إعجابه بوصفه : قد نبأ الله عنكم أنكم قوم خصمون .

الأسوة الحسنة :

وتقتضى طاعته صلى الله عليه وسلم الإيمان بكل ما جاء به والتأسى به فى أقواله وأفعاله وأحواله كما قال تعالى فى سورة الأحزاب : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً) ، فهو فى أقواله وأفعاله وأحواله السراج المنير للسالك على الصراط المستقيم ، فمن استنار به كان من أهل الهدى ، ومن خالفه ضل وغوى ، قال تعالى فى سورة الأحزاب : (يَـأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِـأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً) ، والدعوة إلى الله هى الدعوة إلى توحيده سبحانه ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومكافحة الذين يصدون عن سبيله ، والسراج المنير استعارة للنور الذى يتضمنه شرعه تعالى ، وقيل سراجاً أى : هادياً من ظلمات الضلالة ، فأنت كالمصباح المضيء ، ووصفه بالإنارة لأن من السرج مالا يضيء ، وقيل معناها أنت ذو سراج منير أى كتاب نيّر ، وجاز أن يكون وتالياً كتاب الله . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ومعاذاً ، فبعثهما إلى اليمن وقال : «اذهبا فبشّرا ولا تنفّرا ، ويسّرا ولا تعسّرا ، فإنه قد أنزل علىّ (يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ . . .).

الفضل الكبير :

وفى قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا) ، يقول ابن عطية – كما جاء فى تفسير القرطبى – قال لنا أبىّ رضى الله عنه : هذه أَرْجَى آية عندى فى كتاب الله تعالى ، لأن الله تعالى قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين أن لهم عنده فضلا كبيرًا ، وقد بيّن الله الفضل الكبير فى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءون عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِك هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ) [1] ، ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه : فالآية فى سورة الأحزاب خبر ، والتى فى سورة الشورى تفسير لها .

إنذار العشيرة :

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته الأقربين للإسلام فى بداية الدعوة تنفيذًا لقوله تعالى فى سورة الشعراء : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ، وقد روى مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا فَعَمَّ وخَصَّ فقال :

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« يا بنى كعب بن لؤى ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى مُرّة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد شمس ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد مناف ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى هاشم ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة ؛ أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا ، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها (أى أصلكم صلة الرحم فى الدنيا . ولا أغنى عنكم من الله شيئًا فى الآخرة إن بقيتم على الكفر) ، وبذلك لم يدع صلى الله عليه وسلم حجة لغير أهله فى التخلف عن إجابة الدعوة التى دعا إليها .

ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه : فى هذا الحديث والآية دليل على أن القرب فى الأنساب لا ينفع مع البعد فى الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن بالكافر ، وإرشاده ونصيحته لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن لكم رحمًا سأبلها ببلالها» . وقوله عز وجل فى سورة الممتحنة : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

وها أنت ذا تراه صلى الله عليه وسلم قد دعاهم إلى الإيمان بالحكمة والموعظة الحسنة . فنفذ فى دعوته أمر ربه فى سورة الأنعام : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ، وقد نزلت تلك الآية الكريمة بمكة . فتلطف صلى الله عليه وسلم فى دعوتهم ولم يخاشنهم . وقال العلماء إنها محكمة فى جهة العصاة من المؤمنين ، ومنسوخة بالقتال فى حق الكافرين.

تطور الدعوة إلى الإسلام :

ويقول ابن إسحق فى تطوّر الدعوة إلى الله كما جاء فى سيرة ابن هشام :

مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله . على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وآمنت به خديجة بنت خُوَيْلد — رضى الله عنها — وصدّقت بما جاءه من الله ، وآزرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدّق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع شيئًا مما يكرهه من رد عليه ، وتكذيب له ، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتخفف عليه ، وتصدّقه وتهوّن عليه أمر الناس ، رحمها الله تعالى .

ثم فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة ، حتى شق ذلك عليه وأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحا : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) : فبشره بأنه ما جفاه منذ أحبه ، ووعده بأن سيعطيه النصر فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة ، وذكره ما ابتدأه به من الإكرام فى يتمه وبحثه عن الهدى ، فآواه فى يتمه ، وهداه لأعظم شريعة ، وأغناه من فضله ، فهو لا يتخلى عنه فى أى شأن من شؤون الدنيا والآخرة .

ويقول ابن إسحق : حدثنى بن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت :

افترضت الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله أتمها فى الحضر أربعًا ، وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين ؛ وقال السهيلى : ذكر المزنى أن الصلاة قبل الإسراء كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ، ويشهد لهذا القول قوله سبحانه : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) ، وقال يحيى بن سلام مثله ، وقال : كان الإسراء وفرض الصلوات الخمس قبل الهجرة بعام ، فعلى هذا يحتمل قول عائشة : « فزيد فى صلاة الحضر » ، أى زيد فيها حين أكملت خمسًا ، فتكون الزيادة فى الركعات وفى عدد الصلوات ، ويكون قولها : « فرضت الصلاة ركعتين » أى قبل الإسراء ، وقد قال بهذا طائفة من السلف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منهم ابن عباس ؛ ويجوز أن يكون معنى قولها : « فرضت الصلاة » أى ليلة الإسراء حين فرضت الخمس فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد فى صلاة الحضر بعد ذلك ، وهذا هو المروىّ عن بعض رواة الحديث المتقدم عن عائشة .

السابقون الكرام :

وذكر ابن إسحق أوائل المسلمين ، فذكر منهم سادتنا : علىّ بن أبى طالب (وقال إنه أسلم وهو ابن عشر سنين) وزيد بن حارثة . وأبا بكر الصديق. ثم قال : فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله وإلى رسوله . وكان رجلا مؤلفًا لقومه . محببًا سهلا . وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجراً ، ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته . فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه .

قال : فأسلم بدعائه فيما بلغنى : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام . وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبد الله ؛ وقال ابن إسحق : فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام ، فصلّوا وصدّقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاءه من الله ، ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح . وأبو سلمة . والأرقم ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله . وعبيدة بن الحارث . وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب . وأسماء بنت أبى بكر وأختها عائشة وهى يومئذ صغيرة . وخباب بن الأرت ، وعمير بن وقاص (أخو سعد) . وعبد الله بن مسعود ، ومسعود بن القارى .

وذكر ابن إسحق بقية هؤلاء السابقين بأسمائهم ، فليرجع إليهم من شاء فى سيرة « ابن هشام » ، ثم أضاف يقول :

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدّثوا به . وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين فيما بلغنى من مبعثه . ثم قال الله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعالى : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)[١] ، وقال تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[٢] ، (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)[٣] . قال ابن هشام : اصدع اى أفرق بين الحق والباطل ، وقال ابن إسحق : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب ، فاستخفوا بصلاتهم عن قومهم . ولما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام ، وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون . وحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه (أى حماه) وقام دونه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهراً لأمره لايرده عنه شيء .

فمشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلّل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تُخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقاً ، وردّهم ردّاً جميلا ، فانصرفوا .

العزم المؤكد :

وحين قالت قريش لأبى طالب هذه المقالة ، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

يا بن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، للذى كانوا قالوا له . فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولاتحمّلنى من الأمر مالا أطيق ، قال : فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بدا لعمه فيه بدداء (أى ظهر له فيه رأى) أنه خاذ له ومسلّمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .

---

(١) سورة الحجر ، آية ٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيتان ٢١٤ و ٢١٥ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٨٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعمّ . والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكى ، ثم قام — فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخى ، قال : فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

أقول ، فما أعظم العزم من سيّد أولى العزم من الرسل ، وكيف لا يكون من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم العزم والمضاء اللذان تصاغر أمامهما فى عينه كل من الشمس والقمر ، والتمسك بالدعوة إلى دين الله ، حتى يظهره الله أو يهلك دونه . أما عبراته التى انسكبت ، فهى ليست جزعاً ولا خوفاً . ولكنها انسكبت أسفاً على قومه أن يصمّوا آذانهم عن دعوة الحق فى إصرار واستكبار ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة الكهف : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفا) ، أى مهلك نفسك لحزنك عليهم ، حين فاتهم ما كان يرجو لهم من الإيمان وهو حياة الروح ، وأصروا على الكفر وهو موتها ، ألست تراه تعالى يقول فى المفارقة بين المؤمن والكافر فى سورة الأنعام : (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، نزلت فى المقارنة بين سيدنا حمزة بن عبد المطلب وهو المؤمن ، وأبى جهل الكافر ، وحقّا ما يقول الشاعر الحكيم :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحى بالعلم ميت ... فليس له حتى النشور نشور

والنور فى الآية الكريمة عبارة عن الهدى والإيمان ، وقال الحسن هو القرآن ، وقيل الحكمة ، وقيل هو النور الوارد فى قوله تعالى : (يَوْمَ تَرَى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِم وَبِأَيْمَانهمْ ..)

وصدق الله العظيم إذ يقول فى سورة الأنعام : (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّه يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) .

فضيلة الإيمان :

ولا يخفى على القارئ العزيز أن فضيلة الإنسان كامنة فى روحه التى بين جنبيه ، فإذا فاته أن تتحلى روحه بالإيمان . فقد فاتته الفضيلة كلها ، وصار فى حيوانيته البهيمية أضعف من الأسد ، بل من الفيل ، بل من الثور ، بل من الذئب ، ولكنه إذا تحلى بالإيمان وقويت روحه فى جنب الله . باهى الله به ملائكة السماء ، والإنسان مركب من ملك وملكوت ، فجسده حيوانى من عالم الملك المظلم ، وروحه من عالم الملكوت النورانى الذى خلق الله منه الملائكة ، فإذا قويت غرائزه البشرية الشهوانية كان حيواناً مظلماً ، وإذا قويت إشراقات روحه قاومت شهواته البشرية الظاهرة منها والخفية فانصبغ بصبغة العالم الأسنى — وهو عالم الملكوت — فصار عرشيًّا جسمه بين الخلق يسعى . وروحه فى الملكوت ترعى ، وتميز فى إنسانيته عن بنى جنسه كما قيل :

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وانظر كيف صوّر الله تعالى حياة الشهداء فى قبورهم مع موت أجسادهم أمام أعيننا حيث يقول تعالى فى سورة آل عمران : (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِين قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فرحِينَ بِمَا آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُون بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقوا بِهِمْ مِنْ خلْفِهِمْ أَلاَّ خوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزنون) ، فى حين يقول سبحانه فى شأن الكافرين فى سورة النمل : (إِنَّك لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدعَاءَ إِذا ولَّوْا مُدْبِرين *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وَمَا أَنْت بهادِى الْعُمْىِ عنْ ضَلالتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فهُمْ مُسْلِمُون) . فتدبّر كيف عبّر القرآن الكريم عنهم بالموتى وإن تحركت أجسادهم حركة الحياة الظاهرة ، واستمعت آذانهم إلى صوته صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان استماعاً لاهياً عن التدبر والاتعاظ كما يقول تعالى فى سورة محمد : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتمِعُ إليك حَتَّى إذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِين طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) ، فالحياة الحقة إذن هى حياة الروح بنور الهدى ولو مات الجسد ، والموت موت الروح بظلمة الكفر ولو عاش الجسد .

فأين استماعهم الصوتى من استماع المؤمنين الروحى الذى قال تعالى واصفاً إياه فى سورة الزمر : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَاباً مُتَشَابهًا مَثَانِىَ تَقْشعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) ، وأحسن الحديث هو القرآن الكريم ، قال سعد بن أبى وقاص : قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ) ، فقالوا لو قصصت علينا ، فنزل فى سورة يوسف : (نَحْنُ نَقصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) ، فقالوا : لو ذكّرتنا ، فنزل فى سورة الحديد : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِن الْحَقِّ وَلَايَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُون) ، والمتشابه أى يشبه بعضه بعضاً فى الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضاً ، فلا يتناقض ولا يختلف ، ومثانى أى تُثَنَّى فيه القصص والمواعظ والأحكام ، وثنى للتلاوة فلا يمل القارئ من تكراره ، وتقشعر أى تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد والإنذار ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أى عند آية الرحمة ، وقيل إلى العمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بكتاب الله والتصديق به ، وقيل إلى ذكر الله يعنى الإسلام .

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله ، تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها » ، أى سقطت عنه الذنوب كما تسقط أوراق الشجر فى الخريف ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار » ؛ وعن ثابت البُنَانى رضى الله عنه قال قال فلان :

إنى لأعلم متى يستجاب لى ، قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى .

* * *

ونعود لما كنا فيه من تطوّر الدعوة إلى الإسلام :

قال ابن إسحق : ثم إن قريشًا تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسول له صلى الله عليه وسلم منهم بعمه أبى طالب . .

وقد حاول طغاة الكفار أن يجدوا مغمزاً فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعياهم البحث عن مغمز فيه ، ثم اجتمعوا على باطل من تفكيرهم فأحبط الله كيدهم ، وإليك ما يحكيه ابن إسحق :

« ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيًا واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ، ويردّ قولكم بعضه بعضًا ،

«قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيًا نقول به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع ،

« قالوا : نقول : كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فما هو بزمزمة [١] الكاهن ولا سجعه ،

« قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ،

« قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ،

« قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم [٢] ،

« قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق [٣] ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك .

« فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمرّ بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ،

« فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة قوله تعالى فى سورة المدثر : (ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هٰذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) .

قال ابن إسحق : « وأنزل الله تعالى فى النفر الذين كانوا معه يصنفون

---

(١) الزمزمة هى الكلام الخفى الذى لايسمح .

(٢) إشارة إلى ما كان يفعله الساحر ، بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه ، ويشير لذلك قوله تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) .

(٣) العذق بالفتح النخلة ، يشبهه بالنخلة التى ثبت أصلها وقوى وطاب فرعها إذا جنى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيما جاء به من الله تعالى : (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1] قال ابن هشام واحدة العضين عضة يقول عضوه أى فرقوه » .

قال ابن إسحق : « فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا فى الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها » .

أقول : وصدق الشاعر الحكيم فى قوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

قال ابن إسحق : « فلما انتشر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العرب وبلغ البلدان ، ذكر بالمدينة ولم يكن حىّ من العرب أعلم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر ، وقبل أن يذكر ، من هذا الحى من الأوس والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أخبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ومعهم فى بلادهم .

ثم إن قريشًا اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم ، فاغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم ، فكذّبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لايستخفى به ، معادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم .

أقول : وكيف يعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذاهم واستهزائهم وقد قال له ربه فى سورة المدثر : (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) كما قال له فى سورة الأحزاب : (وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً) ؛ وإذا أردت أن ترى مثلا من ثباته وشجاعته فاستمع إلى ما يحكيه ابن إسحق عن يحيى بن عروة ابن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

---

(١) سورة الحجر ، الآيات ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .

« قلت له ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يظهرون من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً فى الحِجْر[١] ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ،سفّه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرّق جماعتنا ، وسبّ آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا ،

« فبينما هم فى ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرّ بهم غمزوه[٢] ببعض القول ، قال : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم مضى فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف ، ثم قال صلى الله عليه وسلم :

" أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح "

« قال فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة (أى وصية) قبل ذلك ليرفؤه (يهدئه ويسكنه) بأحسن ما يجد فى القول ، حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا .

« قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ، فبيناهم فى ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ، لما كان يقول فى عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم ، أنا الذى أقول ذلك" ،

قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه — قال : فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط » .

---

(١) أى حجر إسماعيل بالكعبة .

(٢) أى طعنوا فيه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول ابن إسحق :

« فلما أسلم حمزة[١] عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه » .

أقول : وهاك أبياتاً فى الشعر قالها سيدنا حمزة رضى الله عنه معتزاً بإسلامه حين أسلم :

حمدت الله حين هدى فؤادى ... إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز ... خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا ... تحدر دمع ذى اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها ... بآيات مبينة الحروف

روعة القرآن :

قال ابن إسحق :

« حدثت أن عتبة بن ربيعة — وكان سيداً — قال يوماً وهوجالس فى نادى قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده :

يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون، فقالوا : بلى يا أبا الوليد قُمْ إليه فكلمه

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا بن أخى إنك منا حيث قد علمت من السِّطة[٢] فى العشيرة ، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرّقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

---

(١) هوسيدنا حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كما وصفوه أعز فتى فى قريش وأشدهم بأساً .

(٢) أى الشرف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل يا أبا الوليد ، أسمع " ، قال : يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيّاً[1] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع[2] على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال :

" أقد فرغت يا أبا الوليد" ؟ قال نعم ، قال : "فاسمع منى " ، قال : افعل ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (سورة فصلت) :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * حٰمٓ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيهِ وفى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، وهى قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاه تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ

---

(١) مايتراءى للإنسان من الجن .

(٢) أى الذى يتبع الناس من الجن .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) . فسجد وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى قد سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا مابدالكم » . قال ابن إسحق :

« ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش من الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين » .

التحدى بالأسئلة :

أقول ملخصاً مما رواه ابن إسحق بسنده : وبلغ من تحديهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أرسلوا وفداً من مكة إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فلما جاء الوفد إلى أحبار اليهود قالوا : إنكم أهل التوارة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل ، فروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هى ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فاصنعوا فى أمره مابدالكم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرجع الوفد إلى مكة ، وجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن تلك المسائل فنزلت فى إجابتهم سورة الكهف ، فتعرضت لقصة أهل الكهف ، ولقصة ذى القرنين تفصيلا ، وقال تعالى فى سورة الإسراء عن الروح : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) .

قال ابن إسحق : « وحدثت عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، قالت أحبار اليهود : يا محمد أرأيت قولك : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قليلاً) إيّانا تريد ؟ أم قومك ؟ قال : كلاًّ ، قالوا : فإنك تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شىء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها فى علم الله قليل ، وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .

قال فأنزل الله تعالى فيما سألوه عنه من ذلك فى سورة لقمان : (وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

معرفة الله تعالى :

أقول : والروح — كما عرفنا الله — هى سر من أسرار الله ، وهى من أمره ، يودعها الله أجسادنا بقدرته ونحن أجنة فى بطون أمهاتنا ، ويتكلم عن بعض خواصها — دون ذاتها — سيدى ابن عطاء الله السكندرى فيقول رضى الله عنه :

« إن معرفة الله فطرية فى النفس ، ويستند فى ذلك كما سلف القول إلى قوله تعالى فى سورة الأعراف : (وَإِذ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدم مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويستطرد قائلا :

« فلما هبطت الأرواح فى الأبدان ، احتجبت المعرفة الفطرية بالله بحجاب البشرية الكثيف ، فستر الله بذلك سر خصوصيته ، وجاء فى حكمه رضى الله عنه : سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية » .

ثم أضاف رضى الله عنه يقول :

«ومن هنا كانت المعرفة بالله أعسر المعارف ، فإنه لا مثل لله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ، ومع هذا فرض الله على عباده جميعاً معرفة ذاته وأسمائه وصفاته ، ويفصل ذلك فيقول :

« والمعرفة بالله قد تكون إثبات وجوده وتقديسه عما لا يليق به ، ووصفه على ما هو عليه وبما وصف به نفسه ، وهذه معرفة عامة المكلفين ، وهى مفروضة عليهم ، وتسمى بالمعرفة العامة ،

« وقد تكون حالا يحدث من شهود ذوقى ، ويكون العارف هو من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله ، وتسمى هذه المعرفة بالمعرفة الخاصة ، وهى معرفة الصوفية التى لا تستند إلى العقل وإنما تستند إلى الذوق » .

ويقول رضى الله عنه : « ولما كانت المعرفة الفطرية قبساً من نوره أودعه قلوب أوليائه ، فإنها لن تأفل أبداً ، وليست كذلك المعرفة التى تأتى عن طريق النظر فى الآثار فهى تأفل بأفول الآثار» .

ويرى سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه أن القلب كلما زهد فى الدنيا (بمعنى طرحها من قلبه لا من يده) وانعدم منه الهوى والحرص والأمل ، وازداد إيمانه ، ثم توحيده ، امتلأ بالتوحيد فصار عرشياً ، وتنزّه عن أوصاف البشرية تماماً ، وشرفت فى الملأ الأعلى صفاته ، وعلت وسمت فى الملأ الأسفل واكتملت بنور اسم الذات بصيرته ، وتخلق بأخلاق الله (أى على قدر بشريته فيكون مثلا رؤوفاً أو رحيماً على قدره كما شاء له الله من الرأفة والرحمة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الصفات القديمة الأزلية فلله وحده سبحانه) . وصارت الأسماء الحسنى وصفه ونعته ، وصار محققًا مستبصراً فانياً فى شهود المذكور عن ذكره . ويضيف رضى الله عنه قائلا : وفى هذا القلب ورد فى الحديث القدسى لايسعنى عرشى ولا كرسيي ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى » .

ويعلمنا رضى الله عنه معنى الحديث المتقدم فيقول فى روعة ظاهرة :

« إن قلب الإنسان لا يسع الله مساحة ، ولا خيالا ، ولا حلولا ، ولا حسًا ، ولاحكماً ، وإنما يسعه توحيداً ، وإيماناً ، وعلماً ، ومعرفة ، وإيقاناً ، ومحبة ، وإخلاصًا ، فضلا من الله وتخصيصًا » .

ويقول شيخى وسيدى العارف بالله الشيخ على عقل طيب الله ثراه ، فيما نقلناه عنه من حكمه الملهمة لوقتها دون إعمال فكر مما يعطيه الله خواص أوليائه :

واكتحال العيون أيسر شيء ... واكتمال القلوب صعب المنال
هو ذكرٌ ورغبةٌ وشهـــودٌ ... ووفاءٌ للخـــالـــق الفعّـــال

ومن ذلك نرى أنه لا بد من صبر ومصابرة ، وجهد ومجاهدة للوصول إلى معرفة الله جل جلاله ، وليس بينك وبينه تعالى مسافة تقطعها حتى تصل إليه ، وإنما الوصول هو أن تصل إلى حضرة تشهد فيها بمذاقك أن لا فاعل إلا الله ، لأنه لا إله سواه ، والكل مهما علوا فهم فى قبضة عزته ، ليس لهم من أمورهم إلا ما شاء الله وقضاه ، كما يقول أمير الشعراء شوقى رحمه الله :

سبحانه الملك إليـــه ولـــــه ... يؤتيه أو ينزعـــه ممـــن يشـــا

الروح والمادة :

وما دمنا فى وادى الروح وما حباها الله به ، فلنقرأ روائع جادت بها قريحة شاعر المسلمين العبقرى السيد محمد إقبال الباكستانى رحمه الله ، وقد ترجم كلامه إلى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان مدّ الله فى عمره :

ودنيا الروح سكر بالمعـــانى ... وصحـــو بالـــرقى وبالمعـــالى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعش للروح فى دنيا وأخرى تفـــز بالعالَمَيْن بـــلا زوال
وإن أمسيت للأموال عبـــداً فقدتهما معًا فى كـــل حـــال
وإن أصبحت فى الأكوان حرًّا فأنت من الكمال إلى كمـــال
وكسب المـــال للمخلوق حق ولكن لا تبـــع شرفًا بمـــال
وإن المال قد يأتى ويمـــضى وأنت وما ملكت إلى ارتحـــال

وإن أردت كيف يشهد الأولياء ربهم فتتعلق به أرواحهم فى جميع أوقاتهم ، فتسعد بذلك الشهود السعادة الحقة ، فاستمع إلى ما قاله إلهامًا لوقته سيدى وشيخى الشيخ على عقل ، نوّر الله ضريحه ، ونقلناه عنه ، وهو يريك كيف تعلق بربه واتجه إليه فى كل أوقاته :

قبلتى فى الصلاة ساعة وقت كم مصلّ بعد الصلاة تلاهى
إنمـــا قبلتى جميع حيـــــاتى هى ذات الإلـــه لن أنســـاها
فمسائى مـــع اليقـــين نهـــار ونهـــارى سعـــادة برضاهـــا
طاف بى النور فالمعارف بحـــرى تلفظ الـــدر وهى لا تتنـــاهى
وارتقاء الأرواح فى مورد العلم يُصَفِّى الأرواح مـــن دنياهـــا
وانعدام الأهواء والحس منهـــا هو معـــنى السموفى مسراهـــا
يا سرورى بقولـــه يا عبـــادى أنا فى سمعها أنـــال رضاهـــا

وما دامت العناية الإلهية قد أسعدتك بالإيمان بالله من قبل أن يكون منك عمل ، فلماذا لا تسأل الله المزيد من فضله كما فعل سيدى ابن عطاء الله فى مناجاته :

« إلهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك . وهذا حالى لا يخفى عليك : منك أطلب الوصول إليك . وبك أستدل عليك . فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك .

« إلهى : أغننى بتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك عن اختيارى ، وأوقفنى على مراكز اضطرارى ،

« إلهى : بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلا تخيبنى ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى ،

« أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ، وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجأوا إلى غيرك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم ،

« ماذا وجد من فقدك ؟ وما الذى فقد من وجدك ؟ لقد خسر من بغى عنك متحولا ، وقد خاب من رضىَ دونك بدلا ، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان ، أم كيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان .

وإذا أردت أن تصدق فى عبوديتك لله ، فاستمع إلى ما ينصحك به رضى الله عنه فى قوله :

«تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بذُلِّك يمدك بعزته ، تحقق بعجزك يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته ،

« كيف يشرق قَلْبٌ صور الأكوان منطبعة فى مرآته (أى أعطى المادة كل اهتمامه وتجاهل أمر الروح) أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » .

ثم انظر كيف اشتغل سيدى وشيخى الشيخ على عقل عن الناس وعيوبهم بحب ربه الأعلى ، فقال رضى الله عنه فى إلهامه الفورى :

أمـــلى فى الله يقبـــلنى ... فسوى الرحمـــن لم أرُمِ
أنا من حـــبى لحضرته ... تارك للنـــاس كلهم
أنا من حـــبى لحضرته ... لم أفـــق من لذة النغم
لم أزل فى حـــى حضرته ... مرتعًا للعـــلم والحـــكم
وفؤادى مـــن هـــدايته ... يرتوى مـــن مورد الـــكرم
وبقـــلبى مـــن محبتـــه ... همة من أعـــظم الهـــمم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هاجنى وجـــدى وبه حرق　　لم تـــكن من شهدة الضرم
بل هى الأنوار يقـــذفها　　فسرت فى مهجـــتى ودمى

وإذا أردت أن تعرف كيف اغتنى بربه تعالى واستغنى عن الناس فاستمع إلى قوله :

فتشت كل الخلق عن علم فـــلم　　أر لى سوى رب السما مـــن وال
فتركت كل العـــالمين وجئتـــه　　وجعلت ذكرى ذاتـــه منوالى

آفات النفس :

وهو بعد ذلك يشرح لنا كيف نحذر أنفسنا ونجاهدها فى تزكية أرواحنا ، مصداقاً لقوله تعالى فى سورة النازعات : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) ، فيقول رضى الله عنه وكان أحد الحاضرين سأله أن يأتى له بأبيات من إلهامه الفورى على وزن البيت الآتى وقافيته :

عجبًا لها تهوى الذى تهوى بـــه　　دون الذى تعلو به فى ذاتها

فكان مما قاله فوراً من إلهامه المتدفق ونقلناه عنه :

عجبًا لها تهوى الذى تهوى به　　كم عالم قـــد زل مـــن نزعاتها
تنأى عن الإصلاح طول حياتها　　وتواصل الإقبال فى شهواتهـــا
تدعى لتأدية الصلاة وإنمـــا　　شغلت بغير الله حـــنين صلاتها
وقفت على الدينار حسن بلائها　　فأمالهـــا عن هديها وهداتها
قد رحبت بالسيئات مريضـــة　　وتضج إن دعيت إلى حسناتها
جهلت طريق الخير وادعت الهدى　　كم تكثر الدعوى على قرباتهـــا
ضحكت على جهالها فتوهموا　　أن العلا والفوز فى نزواتهـــا
ظنوا بنفسهمو الكمال وإنمـــا　　تتوافق الجهلاء فى غاياتهـــا
فنحا مسيلمة النبـــوة وانتهى　　فرعون للتأليه مـــن عثراتهـــا
والنفس ما برحت تضل وما بهـــا　　نور يريح النفس من ظلماتهـــا
فانصح لنفسك فى الأمور لعلها　　قد ترزق الأنوار فى سبحاتهـــا
ترضى تسفلها لكل نقيصـــة　　دون الذى تعـــلو به فى ذاتهـــا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعنت الكفار :

وإذا أردت أن ترى كيف جمحت بالكفار نفوسهم ، ونأت فى جموحها عن اتباع دعوة الحق ، فاقرأ ما وصف به الله تعالى موقفهم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله الكريم فى سورة الفرقان :

(وَقَالُوا مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا) .

فانظر كيف عموا بالحس والمادة عن الروح وأنوارها ، فإن خصوصية الرسل عليهم صلوات الله وسلامه فى بواطنهم وإن شاركونا فى بشريتهم ، قال تعالى فى سورة الكهف : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ) فهو إن كان بشرًا مثلنا من حيث جنسه ، فإنه تميز عنا بوحى يوحيه إليه ربه ، ليبلغه إلينا بأمره سبحانه ،ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة المائدة : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) .

وقد رد الله تعالى على قولهم المتقدم فقال تعالى فى سورة الفرقان : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) ، وفى ذلك دفاع قوى عن رسول الله ، وتسلية له صلى الله عليه وسلم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واقرأ مرة أخرى ما حكاه الله عن عنادهم وجحودهم وإصرارهم فى قوله تعالى فى سورة الإسراء :

(وَقَالوا لَنْ نؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولا) .

ولو أنهم رشدوا لاكتفوا بمعجزة القرآن التى تحدى بها الله تعالى الإنس والجن ، وقال فى تحديه لهم فى سورة الإسراء : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ الناس إِلَّا كُفُورًا) .ولكنهم تجاهلوا الحق، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ؛ وسفهت عقولهم فيما طلبوا ، فإنهم طلبوا فيما طلبوا كما رأيت تدمير الكون فى قولهم : (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً) ، أى قطعاً ، ولو سقطت عليهم لهلكوا جاحدين ، وقد مَنَّ الله على الناس بإمساكه السماء أن تقع على الأرض فى قوله تعالى فى سورة الحج : (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إلا بِإِذْنِهِ) وبلغ بهم الجحود أن يقولوا ... (... أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا) ، أى كفيلا وشاهداً على صدق ما تدعيه .

وقد ذكرنى تحدّيهم العنيد بنكتة طريفة وقعت بين معاوية بن أبى سفيان ورجل يمنى ، فقد دخل اليمنى على معاوية ، فقال معاوية مازحاً معه : ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة (يقصد بها بلقيس ملكة سبأ) فرد الرجل عليه فى ذكاء واضح قائلا : أجهل من قومى قومك الذين حكى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله عنهم فقال تعالى فى سورة الأنفال : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُم إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) . فهلَّا قالوا : فاهدنا إليه .

ونعود إلى ما يحكيه ابن إسحق :

« فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله ، وتركوا أمره عياناً ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم :

(لا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)[1] ، أى اجعلوه لغواً وباطلاً ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم .

فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى ، استرق السمع دونهم فرقاً[2] منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته ، فظن الذى يستمع أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته ، وسمع هو شيئاً دونهم ، أصاخ له يستمع منه » .

وأضاف ابن إسحق يقول :

حدثنى داود بن الحصين مولى عمرو بن عثمان ، أن عكرمة مولى ابن عباس حدّثهم أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما حدّثهم : إنما أنزلت هذه الآية : (وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلًا)[3] من أجل أولئك النفر ، يقول: لا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ،ولا تخافت بها فلا يسمعها من يحب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم ، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع فينتفع به .

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .
(٢) خوفاً .
(٣) سورة الإسراء ، الآية ١١٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ابن إسحق :

« وحدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفى ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه ، كل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا (لام بعضهم بعضًا) وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئًا ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ،

« حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

« فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج ، حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به كذلك .

« قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا[1] على الرُّكب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

---

(١) أى جلسنا ، والحاذى والجاثى سواء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ابن إسحق :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا : يهزءون به - (قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) لا نفقه ما تقول ؛ (وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ) ، لا نسمع ما تقول : (وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) ، أى ساتر قد حال بيننا وبينك ، (فَاعْمَلْ) بما أنت عليه (إِنَّنَا عَامِلُون)[1] بما نحن عليه ، إنا لا نفقه عنك شيئًا ، فأنزل الله عليه فى ذلك قوله تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفِى آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلا مَسْحُوراً * انظرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلقاً جَدِيداً * قلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قلِ الذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَينْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)[2] .

أقول : فانظر كيف نَفَرُوا من توحيد الله حيث أصروا عنادًا على الكفر ، والحظ كيف غابت عقولهم عن آية الله فى إيجادهم ، فاستبعدوا أن يعيدهم بقدرته فى الآخرة ؛ ولو فكروا تفكيرًا سليماً فى الرد على سؤالهم : (مَنْ يُعِيدُنَا) ، وهو قوله تعالى : (قلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّة) لرشدوا ، ولكنهم بدل أن

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٥

(٢) سورة الإسراء ، الآيات من ٤٥ إلى ٥٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتفكروا لووا رؤوسهم تعجباً واستهزاء من أمر البعث بعد الموت ، فكانوا من أصحاب النار ، والعياذ بالله .

وما أروع ما يقول إمامنا على بن أبى طالب : عجبت لمن شك فى الله وهو يرى خلق الله ، وعجبت لمن شك فى الموت وهو يرى الموتى ، وعجبت لمن شك فى النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء .

البحث عن الحق :

ويتكلم سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فى كتاب « الفتوحات » عن المفكرين الباحثين عن الحق من غير هوى فى نفوسهم ، فيقول فى الباب السادس والستين :

بحثوا عن حقائق نفوسهم لما رأوا أن الصورة الجسدية إذا ماتت ما نقص من أعضائها شىء ، فعلموا أن المدرك والمحرك لهذا الجسد إنما هو أمر آخر زائد عليه ، فبحثوا عن ذلك الأمر الزائد فعرفوا نفوسهم ، ثم رأوا أنها تعلم بعدما كانت تجهل ، فعلموا أنها إن كانت أشرف من أجسادها فإن الفقر والفاقة يصحبها ، فاعتلوا بالنظر من شىء إلى شىء ، وكلما وصلوا إلى شىء رأوه مفتقراً إلى شىء آخر ،

حتى انتهى بهم النظر إلى شىء لا يفتقر إلى شىء ، ولا مثله شىء ، ولا يشبه شيئاً ، ولا يشبهه شىء ، فوقفوا عنده وقالوا : هو الأول ، وينبغى أن يكون واحداً لذاته من حيث ذاته ، وأن أوليته لا تقبل الثانى ، ولا أحديته ، لأنه لا شبه له ولا مناسب ، فوحدوه توحيد وجود ،

ثم لما رأوا أن الممكنات لأنفسها لا ترجح لذاتها ، علموا أن هذا الواحد أفادها الوجود ، فافتقرت إليه وعظمته بأن سلبت عنه جميع ما تصف ذواتها به ، فهذا حد العقل ، فبينما هم كذلك ، إذ قام شخص من جنسهم لم يكن عندهم من المكانة فى العلم ، بحيث إن يعتقدوا فيه أنه ذو فكر صحيح ونظر صائب . فقال لهم : أنا رسول الله إليكم ، فقالوا : الإنصاف أولى ، انظروا فى نفس دعواه ، هل ادعى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما هو ممكن أو ادعى ما هو محال ؟ فقالوا إنه قد ثبت عندنا بالدليل أن لله فيضا إلهيًّا يجوز أن يمنحه من يشاء ، كما أفاض ذلك على أرواح هذه الأفلاك ، وهذه العقول ، والكل قد اشتركوا فى الإمكان ، وليس بعض الممكنات بأولى من بعض ، فيما هو ممكن ، فما بقى لنا نظر إلا فى صدق هذا المدعى أو كذبه ، ولا نقدم على شىء من هذين الحكمين بغير دليل فإنه سوء أدب مع علمنا ،

فقالوا : هل لك دليل على صدق ما تدعيه ؟ فجاءهم بالدلائل ، فنظروا فى دلالته وفى أدلته ، ونظروا أن هذا الشخص ما عنده خبر مما تنتجه الأفكار ولا عرف منه ، فعلموا أن الذى أوحى فى كل سماء أمرها كان مما أوحاه فى كل سماء وجود هذا الشخص وما جاء به ، فأسرعوا إليه بالإيمان وصدقوه . وعلموا أن الله قد أطلعه على ما أودعه فى العالم العلوى من المعارف ما لم تصل إليه أفكارهم ، ثم أعطاه من المعرفة بالله ما لم يكن عندهم ، ورأوا نزوله فى المعارف بالله إلى العامى الضعيف (١) الرأى بما يصلح لعقله فى ذلك ، وإلى الكبير العقل الصحيح النظر بما يصلح لعقله فى ذلك ، فعلموا أن الرجل عنده من الفيض الإلهى ما هو وراء طور العقل . وأن الله قد أعطاه من العلم به والقدرة عليه ما لم يعطه إياهم ، فقالوا بفضله وتقدمه عليهم ، وآمنوا به وصدّقوه واتبعوه ، فعين لهم الأفعال المقربة إلى الله تعالى ، وأعلمهم بما خلق الله من الممكنات فيما غاب عنهم ، وما يكون منه سبحانه فيهم فى المستقبل . وجاءهم بالبعث والنشور والحشر والجنة والنار ،

ثم إنه تتابعت الرسل على اختلاف الأزمان واختلاف الأحوال ، وكل واحد منهم يصدق صاحبه . ما اختلفوا قط فى الأصول التى استندوا إليها وعبروا عنها وإن اختلفت

---

(١) ولذلك ترى القرآن الكريم يخاطب الناس على قدر عقولهم ، فخاطب العوام بالمحسوسات كما بينا من قبل : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت) ويخاطب العلماء بالعلم فيقول تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) . ويخاطب الأنبياء فى أنفسهم فيقول تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأحكام فتنزلت الشرائع ونزلت الأحكام، وكان الحكم بحسب الزمان والحال كما قال تعالى: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)[1]، فاتفقت أصولهم من غير خلاف فى شىء من ذلك ، وفرقوا فى هذه السياسات النبوية المشروعة من عند الله، بينها و بين ما وضعت الحكماء من السياسات الحكمية التى اقتضاها نظرهم، وعلموا أن هذا الأمر أتم ، وأنه من عند الله بلا شك ، فقبلوا ما أعلمهم به من الغيوب وآمنوا بالرسل ، وما عاند أحد منهم إلا من لم ينصح نفسه فى علمه واتبع هواه ، وطلب الرياسة عن أبناء جنسه ، وجهل نفسه وقدره ، وجهل ربه ، فكان أصل وضع الشريعة فى العالم وسببها طلب صلاح العالم ، ومعرفة ما جهل من الله مما لا يستقل به العقل من حيث نظره ، فنزلت بهذه المعرفة الكتب المنزلة ، ونطقت بها ألسنة الرسل والأنبياء عليهم السلام ، فعلمت العقلاء عند ذلك أنه نقصها من العلم بالله أمور تممتها لهم الرسل .

وهو كلام نفيس ، فليحرص القارئ الكريم على تفهمه والانتفاع به .

ونعود لتاريخ الدعوة للإسلام فنقول :

اشتداد الأذى :

قال ابن إسحق : « ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يتصلب لهم ويعصمه الله منهم .

الهجرة إلى الحبشة :

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وماهو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب ، وأنه لايقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم :

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه » ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الإسلام .

أقول : وكان ممن هاجر الهجرة الأولى للحبشة سيدنا عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيدنا الزبير بن العوام ، وسيدنا مصعب بن عمير ، وسيدنا عبد الرحمن بن عوف ، وسيدنا أبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته السيدة أم سلمة ، وسيدنا عثمان بن مظعون ، وسيدنا جعفر ابن أبى طالب وزوجته السيدة أسماء بنت عميس، رضى الله عن جميعهم وعن سائر المهاجرين .

ويقول ابن إسحق : فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلا .

ائتمار قريش بمهاجرى الحبشة :

حدث ابن إسحق بسنده عن أم سلمة رضى الله عنها قالت :

لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشى ، أمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لانؤذى ولانسمع شيئًا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشًا ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدَم (الجلد) فجمعوا له أدمًا كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية ،

ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص (أى قبل اعتناق الإسلام) وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم ، ثم قدما إلى النجاشى هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشى ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ، وقالا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى (بلجأ) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينًا (أى أدرى بهم) وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لانعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى ؛ قالت : فقالت بطارقته حوله : صَدَقَا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشى ثم قال : لاها الله ، إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يُكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟

قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنًا فى ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشى أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جعفر يشيد بالإسلام :

قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال له :

« أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ،

« وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفحشاء ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ،

« وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لانشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، قالت : فعدد عليه أمور الإسلام ، فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

قالت : فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟

قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشى : فاقرأه علىّ ، قالت فقرأ عليه صدراً من كهيعص .

قالت : فبكى والله النجاشى حتى اخضلت (ابتلت) لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ماتلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون .

قالت : فلما خرجا من عنده ، قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً عنهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بما أستأصل خضراءهم ، قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ، وكان أتقى الرجلين فينا . لا تفعل ، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ،

قالت : ثم غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيماً ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه، قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، قالت : ولم ينزل بنا مثلها قطّ ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا: نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائناً فى ذلك ما هو كائن .

قالت : فلما دخلوا عليه ، قال لهم : ما ذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم ،

يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ،

قالت : فضرب النجاشى بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود (أى بمقدار هذا العود) قالت : فتنافرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى — والشيوم الآمنون — من سبكم غرم، ثم قال من سبكم غرم ،ثم قال : من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دبراً من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم (والدبر بلسان الحبش أى الجبل) ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىّ[1] ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة .

---

(١) كان قد نازعه رجل فى ملكه ، فدعا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للنجاشى بالنصر على عدوه والتمكين له فى بلاده ، فاستجاب الله دعوتهم ، وانتصر النجاشى ، وأهلك الله عدوه ، وقالت السيدة أم سلمة عندما علم الصحابة بنصره : فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعقيب :

أقول : أرأيت أيها القارئ العزيز مما قصته علينا السيدة أم سلمة رضى الله عنها كيف اصطرع الحق والباطل، وكيف استمسك سادتنا المهاجرون بالحق، وكيف تحملوا فى سبيله من الأذى ، فإن الكفار لم يكتفوا بإيذائهم فى مكة ، بل أرسلوا من ورائهم من يكيد لهم بالحبشة عند النجاشى ،ولكن الله أحبط كيدهم ، فكان النجاشى باهراً فى موقفه ، عظيماً فى مسلكه ، كريماً فى دينه وكرمه وخلقه ، عفيفاً أبياً ، صادقاً وفياً ، حمى نزيله ، وأكرم جاره ، وانتصر للحق وكان فى كل ذلك على نور من ربه ، فلا تعجب بعد ذلك أن يكون وكيلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى زواجه بالسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان التى تنصر زوجها فى الحبشة بعد أن كان مسلماً ، ففارقته بعد أن نصحت له ، وخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفتنها أبوها أبو سفيان بن حرب لو عادت إليه بمكة (وكان حينئذ على كفره) وهى مسلمة ، فتزوجها ، ووكل النجاشى فى العقد عليها ، فحمى صلى الله عليه وسلم عقيدتها بذلك الزواج الذى أسعدها الله به فى الدنيا والآخرة .

كذلك لاتعجب إذا علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى إلى أصحابه بالمدينة المنورة النجاشى حين أعلمه الله بموته (فى رجب سنة تسع من الهجرة) ، وصلى عليه صلاة الغائب فى البقيع ، وكانت تلك أول صلاة صليت فى الإسلام على الغائب ، رفع إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه وهو بالمدينة ، فصلى عليه ، واستغفر له ، وتكلم المنافقون ، فقالوا : انظروا إلى هذا ، يصلى على علج نصرانى لم يره قط ، فأنزل الله تعالى فى سورة آل عمران :

(وإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ابن إسحق :

وحدثنى يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما مات النجاشى كان يُتَحدّث أنه لا يزال يُرى على قبره نور .

مناقب جعفر وابنه عبد الله :

وأقول : أرأيت كيف تكلم سيدنا جعفر بن أبى طالب عن الإسلام ودعوته ، وكيف وصف ما كانوا فيه قبل الإسلام ، وما صاروا إليه بعد إسلامهم ، وكيف صارح النجاشىّ بعقيدة المسلمين فى غير مجاملة أو مواربة ، إرضاء لله ورسوله كائنة ما كانت العاقبة ، ولقد خاف الله من فوقه ، فأمنهم الله جميعًا بما قال صادقًا ، فعاشوا كما قالت سيدتنا أم سلمة رضى الله عنها فى خير دار مع خير جار ، أما فصاحة ما تكلم به سيدنا جعفر وجزالته فلا تعجب لها ، فإنه من رؤساء بنى هاشم وسادتهم ، وبنو هاشم كما تعلم من فصاحتهم جميعًا إنما يغرفون من بحر الفيض الذى ليس له قرار ، وهم كما وصفهم الجاحظ ملح الأرض (أى لا تصلح إلا بهم كما لا يصلح الطعام إلا بالملح) وزينة الدنيا ، وحلى العالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم .

إنه والله جعفر الذى قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه وقال : لست أدرى بأيهما أنا أشد فرحًا ، بلقاء جعفر أم بفتح خيبر ، وكان صلى الله عليه وسلم قد انتصر على اليهود فى خيبر حين لقيه جعفر عائداً من الحبشة .

وهو والله جعفر الذى فدى الإسلام بروحه ، فبذلها دفاعًا عنه فى مؤتة ، وكان يومئذ صاحب اللواء بعد أن استشهد زيد بن حارثة ، فلما ضرب الأعداء جعفراً وقطعوا يمينه ، أمسك الراية بيساره ، فقطعوا يساره ، فأمسك الراية بين ذراعيه بعد أن قطعوا يديه حتى أخذها عبد الله بن رواحة ، فاستشهد كما استشهد من قبله زيد وجعفر ، ألا رَضِىَ الله عن أسُود الشرى وسيوف الإسلام ، فكم نحن مدينون لهؤلاء الأبطال فى الحفاظ على دين الإسلام حتى وصل إلينا بسلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو والله جعفر الذى بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجته السيدة أسماء بنت عميس رضى الله عنها بأن الله أبدله بيديه المقطوعتين جناحيْن يطير بهما فى الجنة، فسمى « ذا الجناحين »، كما سمى « الطيّار »، إنه آمن بالله إيمان الصادقين، ومات فى سبيله ميتة الصدّيقين، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاعتزاز به: « أما جعفر فلا بواكى له» ، وهو أبو عبد الله بن جعفر الذى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: « اللهم بارك لعبدالله فى صفقة يمينه » وكان عبد الله لسخائه يسمى قطب السخاء ، وقد تغنى بسخائه الشعراء فقالوا :

إنك يا بن جعفر نعم الفتى ونعم مأوى طارق إذا أتى
ورب ضيف طرق الحى سرى صادف زاداً وحديثًا ما اشتهى

كما قالوا فيه :

وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر رأى المال لا يبقى فأبقى له ذكرا

وعبدالله هو زوج السيدة زينب بنت عمه الإمام علىّ بن أبى طالب ، التى بوركت بلادنا بمشهدها الأنور ، وهو أول مولود ولد للمسلمين فى الحبشة ، وأمه هى السيدة أسماء بنت عميس ، التى افتخر عليها سيدنا عمر بالهجرة إلى المدينة المنورة حين كانت بالحبشة ، فقالت له : لقد كنتم بجوار رسول الله يطعمكم ويسقيكم، وكنا فى بلاد غربة نعانى ما نعانى من ألم الجوع والعطش ، ثم شكته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : وماذا قلت له ، فقالت : قلت له لقد كنتم بجوار رسول الله يطعمكم ويسقيكم . . . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مطيبا خاطرها : « له ولأصحابه هجرة ، ولكم أهل السفينة هجرتان » .

إنها والله تضحيات عزيزة ، ولكنهم أرخصوها فى سبيل الله حتى تغنّى حاديهم وهم مهاجرون إلى الحبشة :

الأهل والأوطان فراقهم صعب
لكنه الإيمان فداؤه القلب
والروح والأبدان فليقبل الرب

فليقبل الرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ابن إسحق :

ولما لم ينالوا من مهاجرى الحبشة ما أرادوا ، وأسلم عمر بن الخطاب وكان رجلا ذا شكيمة ، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة حتى عازُّوا (غلبوا) قريشًا ، وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب ، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة .

وهو عمر الذى قال فيه ابن مسعود رضى الله عنهما : إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، فليستمع القارئ الكريم إلى حديث عجب فى إسلامه رضى الله عنه ، ليرى أثر الإسلام فيه ، وأثر عمر فى الإسلام .

إسلام عمر :

روى ابن إسحق فى إسلام عمر روايات مختلفة ، ومما روى بسنده عن عطاء ومجاهد أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه أنه كان يقول :

« كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية ، أحبها وأسرّ بها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال بالحزورة (سوق مكة) ، قال فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك فى مجلسهم ذلك ، قال فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً ، فقلت لو أنى جئت فلانًا الخمار ، وكان بمكة يبيع الخمر ، لعلى أجد عنده خمراً فأشرب منها ،

« قال : فخرجت فجئته فلم أجده ، قال : فقلت لو أنى جئت الكعبة فطفت بها سبعًا أو سبعين ، قال : فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليمانى ، قال : فقلت حين رأيته ، والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ، قال : فقلت لو دنوت منه لأروعنّه ، فجئت من قبل الحِجْر ، فدخلت تحت ثيابها (الكعبة) فجعلت أمشى رويداً ، ورسول الله صلى الله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليه وسلم قائم يصلى يقرأ القرآن ، حتى قمت فى قبلته مستقبله ، ما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة .

« قال : فلما سمعت القرآن رقّ له قلبى ، فبكيت ودخلت فى الإسلام ، فلم أزل قائمًا فى مكانى ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حسين ، وكانت طريقه ، حتى يجزع (يقطع) المسعى ، ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب ، وبين دار ابن أزهر ، ، ثم على دار الأخنس حتى يدخل بيته ،

وكان مسكنه صلى الله عليه وسلم فى الدار الرقطاء (التى فيها ألوان) ، قال عمر : فتبعته حتى إذا دخل دار عباس ودار ابن أزهر أدركته ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حسى عرفنى ، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى إنما تبعته لأوذيه ، فنهمنى (زجرنى) ثم قال : ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة ؟

« قال : قلت جئت لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله : فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قد هداك الله يا عمر ، ثم مسح صدرى ودعا لى بالثبات ، ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته .

رواية أخرى فى إسلام عمر رضى الله عنه :

وفى الروض الأنف رواية أخرى ، جاء فيها :

ذكر ابن ستجر قال : حدثنا أبو المغيرة قال بسنده : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أتعجّب من تأليف القرآن : قال : قلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنونَ) قال : قلت : كاهن عَلِمَ ما فى نفسى ؛ فقال : (وَلَا بِقَوْلِ

كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) إلى آخر السورة ، قال : فوقع الإسلام فى قلبى كما وقع ، ويذكرون أن عمر قال شعرًا حين أسلم :

الحمد لله ذى المن الذى وجبت	له علينا أياد مالـــه غـــير
وقد بدأنا فكذبنا فقـــال لنا	صدق الحديث نبى عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى	ربى عشية قالوا قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زلل	بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة	والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذى تدعوه خالقها	فكاد تسبقنى من عـــبرة درر
فقلت أشهد أن الله خالقنا	وأن أحمد فينا اليـــوم مشتهر
نبى صدق أتى بالحق من ثقـــة	وافى الأمـــانة ما فى عوده ضرر

أقول : ولعل هذه الأبيات ، كما يظهر منها ، تشير إلى رواية أخرى فى إسلامه رضى الله عنه غير الروايتين السابقتين ، وقد حدّث بها ابن إسحق ، وقال فيها :

وكان إسلام عمر فيما بلغنى ، أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد ابن زيد ، وكانت أسلمت وأسلم زوجها سعيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله من بنى عدّى قد أسلم ، وكان يستخفى بإسلامه خوفًا من قومه ، وكان خباب بن الأرت[1] يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئُها القرآن ، فخرج عمر يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطًا من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر الصديق ، وعلىّ بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) خباب بن الأرت من السابقين الأولين فى الإسلام ، الذين صبروا على ما أوذوا ، وقد سأله أمير المؤمنين عمر يوماً عما لقى فى ذات الله ، فكشف ظهره ، فقال سيدنا عمر : مارأيت كاليوم ، فقال : ياأمير المؤمنين : لقد أوقدت لى النار فما أطفأها إلاشحمى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد ياعمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

« فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك ياعمر ، أترى بنى عبدمناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً !! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال ختنك (صهرك) وابن عمك سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما ،

« قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه[1] ، وعندهما خباب بن الأرتّ معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حسّ عمر ، تغيّب خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة (صوت كلام لايفهم) التى سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئًا ، قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ،

« فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى (رجع) وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفًا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه فقالت له : يا أخى إنك نجس على شركك ، وإنه لايمسها إلا طاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها ،

---

(١) زوج أخته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيّه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهمّ أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر ،

« فقال له عند ذلك عمر : فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف ، فقال حمزة ابن عبد المطلب فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إيذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ بحجزته (موضع شد الإزار أى وسطه) أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه به جبذة شديدة وقال : ما جاء بك يابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ، قال فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم » .

قال ابن إسحق :

« فتفرّق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم ، وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينتصفون بهما من عدوهم ، فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعقيب :

أقول : وأنا أقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلم عمر : « الله أكبر » فقد جاءه عمر المعروف فى مكة بشكيمته وشراسته وفتوته طائعاً مختاراً حين أشرقت عليه أنوار القرآن الكريم ، فامّحت بإشراقها ظلمات الجهالة ، وتحول عمر من الضد إلى الضد ، فلان بعد قسوة ، وصاحب بعد عداوة ، وتاب بعد ذنوب ، واستقام بعد عوج ، ورق بعد شدة ، وراق بعد كدورة ، وصار جيشاً فى جنب الله بعد أن كان جيشاً فى حزب الشيطان .

« الله أكبر » فقد تحول عمر بقدرة الله من حال إلى حال ، وسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ، سبحانه من إله فعّال يقول للشىء كن فيكون .

« الله أكبر » فقد أيد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بنصره وبالمؤمنين ، وقد سعد عمر بالإسلام ، وسعد الإسلام بعمر ، وقد كتب الله الإسلام لعمر قبل أن يكون من عمر عمل صالح ، فهو قضاؤه الذى قضاه بإيمان عمر ، وحقاً ما قال العارفون : ليس الإيمان ما يتزين به العبد من الأقوال والأفعال ولكنه جَرْىُ السعادة فى سوابق الأزل .

وإنى لا أقلل بذلك من قيمة العمل الصالح ، وكيف لى بذلك والعمل ولاء وامتثال للآمر به سبحانه (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ . وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) كما هو إقرار بفضل الله ورمز لشكره على ما أولاه : (اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ) .

وقد سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول : اللهم اجعلنى من القليل فقال له : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قول الله تعالى : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ) ، فقال سيدنا عمر رضى الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر !! ويرى القارئ الكريم من ذلك أن الرجل سأل ربه أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوفقه للعمل الصالح الذى يقربه إلى الله عزوجل، فيكون من الشاكرين وهم قليل .

وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر (تتشقق) قدماه ، فقالت عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً .

ويقول الإمام القرطبى فى تفسيره : فظاهر القرآن والسنة أن يكون الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان ، فالشكر بالأفعال عمل الأركان ، والشكر بالأقوال عمل اللسان .

أقول : وهناك شكر بالجنان ، وهو أن يوقن العبد بقلبه أن كل نعمة جرت أو تجرى عليه فإنما هى من فضل الله تعالى وعطائه ، كما قال تعالى فى سورة النحل : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) ، اللهم اجعلنا من الشاكرين بالأركان وباللسان وبالجنان يا رب العالمين .

اللهم يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك وأحينا عليه ، وأمتنا عليه ، وابعثنا عليه ، مع الآمنين من الفزع الأكبر يوم القيامة ، ووفقنا للعمل الصالح الذى يرضيك عنا برحمتك يا أرحم الراحمين ، وبجودك يا أجود الأجودين ، سبحانك لانحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، يا من قلت فى سورة الحجرات وقولك الحق :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

ونعود لما كنا فيه :

الصحيفة الظالمة :

قال ابن إسحق :

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل — اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ،

فلما فعلت ذلك قريش ، انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه فى شعبه ، واجتمعوا إليه ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شىء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو قومه ليلا ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، منادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس ،

وكانت قريش إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مُذَمَّماً ثم يسبونه ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول ، ألا تعجبون لما يصرف الله عنى من أذى قريش ، يسبون ويهجون مُذَمَّماً وأنا محمد ، أقول ما أصبرك يا سيدى يا رسول الله ، وما أحلمك ، وما أرشدك .

الكفار يقترحون :

واعترض رسول الله وهو يطوف بالكعبة فيما بلغنى الأسود بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعاصى بن وائل السهمى ، وكانوا ذوى أسنان فى قومهم ، فقالوا :

يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتَعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان مانعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة ، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفيا ، فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ٣٣ رجلا ، وكان ممن دخل منهم بجوار ، عثمان بن مظعون الجمحى ، دخل بجوار من الوليد بن المغيرة .

عثمان بن مظعون :

قال ابن إسحق يحكى موقفًا نبيلا رائعًا من مواقف عثمان بن مظعون رضى الله عنه : لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء ، وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيرة ، قال : والله إن غدوى ورواحى آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى ، لنقص كبير فى نفسى ،

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ، وفت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك ، فقال له : يا بن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومى ، قال لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره، قال : فانطلِقْ إلى المسجد ، فاردد علىّ جوارى علانية كما أجرتك علانية ،

قال : فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان ، قد جاء يرد علىّ جوارى ، قال : صدق ، وقد وجدتُه وفيًّا كريم الجوار ، ولكنى قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره ، ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة فى مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد :

* ألا كل شىء ما خلا اللهَ باطل *

قال عثمان : صدقتَ ،

قال لبيد :

* وكل نعيم لا محالة زائلُ *

قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لايزول ، قال لبيد : معشر قريش ، والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا سفيه فى سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن فى نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان حتى شرى (أى زاد) أمرهما ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها ، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان ، فقال : أما والله يا بن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة .

قال : يقول عثمان : بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس ، فقال الوليد : هلم يا ابن أخى إن شئت فعد إلى جوارك ، فقال : لا .

أقول : فما أعظم هذه النفوس المؤمنة الأبية ، فقد اعتز عثمان بن مظعون بربه واحتمى فيه ، وكفى بالله وليًّا وكفى بالله نصيراً ، وكيف لايفعل وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من سلفنا الصالح ، وذلك حين دفن إلى جواره فى البقيع ابنه الطفل سيدنا إبراهيم عليه السلام ، الذى كان له من مارية عليها السلام ، وقال يخاطب وليده : الْحَقْ بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ، وكان عثمان رضى الله عنه أول من دفن فى البقيع من المهاجرين الكرام ، رضى الله عنهم وعن الأنصار أجمعين وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين .

الصديق يرد الجوار :

وانظر إلى موقف الكفار من سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد كان له مسجد عند باب داره فى بنى جمح ، وكان رضى الله عنه إذا قرأ القرآن استبكى ، قالت السيدة عائشة فكان يقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، قالت : فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة — وكان قد أجاره — فقالوا له : يا بن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل لتؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى ، فنحن نتخوّف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأته فمُرْه أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء ،

فمشى ابن الدغنة إليه فقال له : يا أبا بكر إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ، وتأذوْا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت . قال : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ قال : فاردد على جوارى ، قال : رددته عليك ، فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن ابن أبي قحافة قد ردّ على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم .

قال ابن إسحق فحدثونى أن سفيهاً من سفهاء قريش لقى أبا بكر وهو عامد إلى الكعبة، فحثا على رأسه ترابًا ، فمر بأبى بكر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل ، فقال له أبو بكر ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك ، قال وهو يقول : أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك !

معجزة فى شأن الصحيفة الظالمة :

وقد مر عليك خبر الصحيفة الظالمة التى تعاهد فيه الكفار على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب وأودعوها الكعبة ، وإليك ما كان من شأنها بعد ذلك :

فقد جهد المسلمون من ضيق الحصار حتى أكلوا ورق الشجر ، ولقد قال سيدنا سعد بن أبى وقاص : جعت حتى إنى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته ، وما أدرى ما هُو إلى الآن .

وقد كشف الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن الأرَضة أكلت الصحيفة الظالمة ، فقال لعمه أبى طالب : يا عم ، إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسمًا هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان ، فقال : أربُّك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد ، ثم خرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا ، فهلم صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا ، وأنزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذبًا دفعت إليكم ابن أخى ، فقال القوم : رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا ، فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادهم ذلك شرًّا ،

ولكن قام رجال منهم فعملوا على نقض الصحيفة وقال قائلهم : يأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق تلك الصحيفة القاطعة الظالمة ، وقام المطعم بن عدى ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ابن إسحق :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما يرى من قومه ، يبذل لهم النصيحة ، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه ؛ وجعلت قريش حين منعه الله منهم ، يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس فى المسجد ، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب ، وعمار ، وأبو فكيهة ، وصهيب وأشباههم من المسلمين ، هزئت بهم قريش ، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق !! لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، وما خصهم الله به دوننا .

فأنزل الله تعالى فيهم فى سورة الأنعام : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى ، كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى بيعة غلام نصرانى يقال له جبر ، عبد لبنى الحضرمى ، فكانوا يقولون : والله ما يُعَلِّمُ محمدًا كثيرًا مما يأتى به إلَّا جبر النصرانى ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم فى سورة النحل : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) .

---

(١) يلحدون أى يميلون إليه ، والإلحاد هو الميل عن الحق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان العاصى بن وائل السهمى فيما بلغنى إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعوه ، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، فأنزل الله فى ذلك سورة الكوثر : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ [1] هُوَ الْأَبْتَرُ) . والكوثر الخير الكثير ، وقيل نهر كبير فى الجنة ، مَنْ شَرِبَ منه لا يظمأ أبدًا .

موت السيدة خديجة وأبى طالب :

قال ابن إسحق :

« ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب ماتا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بموت خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام وبموت عمه أبى طالب ، وكان له عضداً وحرزاً فى أمره ، ومَنْعَة وناصراً على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين ، فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب .

مفاوضة الكفار :

قال ابن إسحق :

ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشًا ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا .

قال : فمشوا إلى أبى طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، فى رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب : إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ،

---

(١) شانئك : مبغضك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فادعه فخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا ، وندعه ودينه ، فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال :

يا بن أخى هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، قال : فقال أبو جهل : نعم ، وأبيك ، وعشر كلمات ، قال : تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه ، قال فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا :

أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا ، إن أمرك لعجب ! قال : ثم قال بعضهم لبعض ، إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، قال : ثم تفرقوا ، وأنزل الله فى سورة ص : (صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِى الْمِلَّةِ[1] الآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ) .

خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف :

قال ابن إسحق :

ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياته ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم من نصرته على الإسلام ،

(١) يعنون النصارى الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والقيام معه على من خالفه من قومه ، فردوا عليه رداً قبيحاً ، فقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنّى .

وقد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، فتحركت له رحمهما وأرسلا له قطفاً من العنب مع غلام نصرانىّ لهما يقال له عدّاس

سعادة عدّاس :

فأقبل عدّاس بطبق فيه القطف ، ووضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : باسم الله ، ثم أكل ،

فنظر عدّاس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أهل أى البلاد أنت يا عدّاس ومادينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نِينَوَى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ، فقال له عدّاس : ومايدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى ، كان نبيّاً وأنا نبى ، فأكب عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قال : فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عدّاس قالا له : ويلك ياعدّاس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال يا سيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى ، قالا له : ويحك يا عدّاس ، لايصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه ، أقول : وقد أخلص عدّاس دينه لله ، فساق الله له السعادة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تضرع نبوىّ :

وقد توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه بالشكوى ، ودعا دعاءه المشهور فقال وهو بالطائف :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوّتى ، وقلةَ حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهّمنى (أى يستقبلنى بوجه كريه) ؟ أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » :

قال ابن إسحق :

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبىّ مرسل ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه الله به :

وقد فشا الإسلام بمكة فى قريش وفى القبائل كلها ، ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كيف شاء الله سبحانه ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التى يصنع بها ما يريد ؛ وكان فى مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص لمن آمن بالرسالة وصدّق بها على يقين — أقول وستأتيك قصة الإسراء والمعراج كاملة فى باب لا حق من أبواب الكتاب إن شاء الله :

اللقاء الأول مع الأنصار :

قال ابن إسحق :

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم .

فبينما هو عند العقبة (فى منى) لَقِيَ رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى !

« فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، قال : وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام ، أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانواهم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبيًّا مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

« قال فلما قدموا المدينة إلى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللقاء الثانى بالأنصار :

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلاقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة الأولى ، فبايعوه على بيعة النساء[١] ، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب .

أول سفير فى الإسلام :

قال ابن إسحق :

فلما انصرف عنه القوم ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصىّ ، وأمره أن يُقرئهم القرآن ويُعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين .

أقول ، فكان سيدنا مصعب بن عمير ، رضى الله عنه أول سفير فى الإسلام، وقد أسلم على يديه سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضى الله عنهما ، وهما يومئذ كبيرا بنى عبد الأشهل وتبعهما قومهما .

اللقاء الثالث بالأنصار :

ثم إن مصعب بن عمير رضى الله عنه رجع إلى مكة ، وخرج من خرج من مسلمى الأنصار إلى موسم الحج مع حجاج قومهم من أهل الشرك . فواعد الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة فى أوسط أيام التشريق . وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين .

يقول كعب بن مالك رضى الله عنه : فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى

---

(١) وهى المذكورة فى قوله تعالى فى سورة الممتحنة : ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا نتسلل تسلل القطا مستخفين (القطا طائر صغير) حتى اجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

يامعشر الخزرج ، خزرجها وأوسها ، إن محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

بيعة العقبة :

قالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، قال : فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغّب فى الإسلام ، ثم قال :

أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور رضى الله عنه بيده وقال : نعم ، والذى بعثك بالحق نبيًّا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا (أى نساءنا) فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أى السلاح) ورثناها كابراً عن كابر .

قال : فاعترض القولَ والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التَّيِّهان ، فقال : يا رسول الله : إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنّا قاطعوها — يعنى أهل مكة واليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدْم الهدْم (أى ما هدمتم من الدماء هدمناه) أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

أقول : وجاء فى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال : معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم ، ففرحوا وقالوا : هذه أيدينا فخذ لربك ولنفسك ما أحببت ، فبايعهم وقال : أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا كفلاء على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى — يعنى المسلمين — قالوا : نعم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الرابع

الإسراء والمعراج

شرّف الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فأسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وقال تعالى فى سورة الإسراء منوّهًا بقدرته على كل ممكن ، وبحكمته فى ذلك الإسراء : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ، وكان الإسراء قبل الهجرة إلى المدينة بسنة . ولا شك أن ما رآه صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى صرف عنه الآلام الشداد التى تتابعت وصبر عليها ، من موت السيدة خديجة أم المؤمنين رضى عنها ، إلى موت عمّه أبى طالب ، إلى عداوة قومه ، إلى خذلان أهل الطائف الذين كان يأمل فى نصرتهم على أهل مكة .

وقد جاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم كان نائمًا فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب بعد صلاة العشاء ، فأسرى به ورجع من ليلته ، وقصّ القصة عليها ، وقال : مثّل لى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فصليت بهم ، ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وأخبر به قريشاً ، فتعجبوا منه لاستحالته فى ظنهم وارتدّ ناسٌ ممن آمن به ، وسعى رجال إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فقال : إن كان قال لقد صدق ، فقالوا أتصدقه على ذلك ؟ قال : إنى لأصدّقه على أبعد من ذلك ، فسمى « الصِّدِّيق» واستنعته صلى الله عليه وسلم طائفة ممن سافروا إلى بيت المقدس ، فجلاه الله له ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب ، فقالوا : أخبرنا عن عيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جمل أورق[١]، فخرجوا يشتدون إلى الثنية ، فصادفوا العير كما أخبرهم، ثم لم يؤمنوا ، وقالوا ما هذا إلا سحر مبين .

الإسراء بالجسد :

ويقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره : دل قوله تعالى (بعبده) على أن الإسراء كان بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن العبد اسم للجسد والروح ، قال تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى) ؛ وقال القاضى عياض : وهو الحق ، وعليه تدل الآية نصًّا ، وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة تؤذن بتأويل ، إذ لو كان منامًا لقال : سبحان الذى أسرى بروح عبده ولم يقل «بعبده» ، والعبد حقيقة هو الروح والجسد ، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) أى ما عدل عن رؤية ما أمر برؤيته من عجائب الملكوت ، ولو كان منامًا لما كانت فيه آية ولا معجزة خارقة للعادة تورث صدقه ، وأيضاً لو كان منامًا لما استبعده الكفار ولا كذبوه ، ولا ارتد به ضعفاء من أسلموا وافتتنوا به ، لبعده عن العادة .

وقد روى البخارى رضى الله عنه فى باب الإسراء فى صحيحه ، وسعيد بن منصور فى سننه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، زاد سعيد وليست رؤيا منام ، وقال الحافظ بن حجر رضى الله عنه : إضافة الرؤيا للعين للاحتراز عن رؤيا القلب وقد أثبت الله رؤيا القلب فى القرآن بقوله تعالى : (ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) ، وأثبت رؤيا العين بقوله تعالى : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) وجزم بما قاله ابن عباس إنها رؤيا عين ليلة الإسراء مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وغير واحد وهو

---

(١) الجمل الأورق لونه كلون الرماد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصحيح . أقول والآيتان السابقتان خاصتان بمعراجه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وسيأتيك التفصيل .

وجاء فى كتاب « جواهر البحار » لسيدى الشيخ النبهانى رضى الله عنه ما ردّ به سيدى الحافظ الشامى (تلميذ الإمام السيوطى) على من أنكروا الإسراء والمعراج بالجسد ،

وخلاصته :

١ — إن الذى عنده علم من الكتاب أحضر كرسى بلقيس من أقصى اليمن إلى أرض الشام فى مقدار لمح البصر .

٢ — إنه إذا استبعدوا صعود الجسم الكثيف ، استبعدوا بالمثل نزول الجسم اللطيف الروحانى من العرش إلى مركز العالم، فإن كان القول بمعراج النبى صلى الله عليه وسلم فى الليلة الواحدة ممتنعًا فى القبول ، كان القول بنزول جبريل عليه السلام من العرش إلى مكة فى اللحظة الواحدة ممتنعًا ، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعنًا فى نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والقول بثبوت المعراج فرع عن تسليم جواز أصل النبوة ، فيلزم القائل بامتناع حصول هذه الحركة امتناع نزول جبريل عليه السلام ، ولما كان ذلك باطلا كان ما ذكروه باطلا ، وقد قال تعالى :

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) ، فالذين آمنوا ازدادوا إيمانًا بالغيب ، أما الذين كفروا فقد أراهم النبى صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر فقالوا : هذا سحر مستمر .

٣ — إنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء فى بيت المقدس وأمّهم على الهيئة البشرية ، ثم لما وصل إلى الملكوت العلوى لم يجدهم على تلك الحالة التى شاهدهم عليها فى الأرض ، وإنما هم على صفات روحانية شكل الله لهم أشكالا لائقة بالملكوت العلوى تكريمًا له صلى الله عليه وسلم ، وتعظيمًا للقدرة الإلهية ، حيث شاهدهم تلك الساعة فى الأرض ، ثم رآهم فى منازلهم فى السماء ، فلذلك سأل عنهم استيثاقًا لا تعجبًا ، فإنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن الله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعالى الذى أصعده إلى هذا المكان فى لحظة ، قادر على نقلهم إلى السموات فى أسرع من طرفة عين ، سبحانه وتعالى .

وما أروع ما يقوله الحافظ رضى الله عنه :

لا تتوهم مما تسمعه فى قصة المعراج من الصعود والهبوط أن بين العبد وربه مسافة ، فإن ذلك كفر ، نعوذ بالله من دلك، وإنما هذا الصعود والهبوط بالنسبة إلى العبد لا إلى الرب ، والنبى صلى الله عليه وسلم مع انتهائه ليلة الإسراء إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى ، لم يجاوز مقام العبودية ، وكان سواء هو ونبى الله يونس بن متى عليه السلام إذ التقمه الحوت ، وذهب به فى البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فى مباينة الله تعالى خلقه وعدم الجهة والتحيز والحد والإحاطة .

ويقول كذلك رضى الله عنه ، نسبة الدنو والقرب إليه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) كناية عن جزيل فوائده إليه وجميل عوائده عليه . ويقول الواسطى رضى الله عنه : من تَوهّم أنه سبحانه وتعالى بنفسه دنا ، فقد جعل ثَمَّ مسافة ولا مسافة لاستحالتها ، وقوله تعالى : (فَإِنِّى قَرِيبٌ) تمثيل لكمال علمه وإجابته ، لتعاليه عن القرب مكاناً ، ويتأول فى الدنوما يتأوّل فى قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث رواه البخارى حكاية عن ربه تبارك وتعالى : « من تقرّب منى شبراً تقرّبت منه ذراعًا » وهو تمثيل يُقرّب المعنى للأفهام، ، أى من تقرّب إلىّ بطاعتى ، جازيته بأضعاف ما تقرّب إلىّ، « ومن أتانى يمشى أتيته هرولة» أى سبقته بجزائه ، فهو قرب بالإجابة والقبول وإتيان بالإحسان ، وقد سلك به طريق المشاكلة فسماه تقرّباً .

ويقول العارف بالله سيدى الشيخ إسماعيل حقى فى تفسيره (روح البيان) : « وكان العبد فى المكان والرب فى اللامكان، وهذا غاية فى كمال تنزيهه وعظيم لطفه، إذ تتجلى نفسه لقلب عبده وهو فى اللامكان والعبد فى مكان ، والعقل ههنا مضمحل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعلم متلاشٍ ، لأن العقول عاجزة ، والأوهام متحيرة ، والقلوب والهة ، والأرواح حائرة ، والأسرار فانية » .

وأضاف رضى الله عنه : إذا علمت ذلك ، فالمراد بترقيه صلى الله عليه وسلم وقطع هذه المسافات ، إظهار مكانته عند أهل السموات ، وأنه أفضل المخلوقات — ويقوّى هذا المراد كونه تعالى أركبه البراق ، ونصب له المعراج ، وجعله إماماً للنبيين والملائكة ، مع أنه تعالى قادر على أن يرفعه بدون البراق والمعراج .

ويقول أيضاً رضى الله عنه :

والحكمة فى تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء ، أنه صلى الله عليه وسلم لما عُرج به تلك الليلة ، رأى تعبّد الملائكة ، وأن منهم القائم فلا يقعد ، والراكع فلا يسجد ، والساجد فلا يقعد ، فجمع الله له ولأمته تلك العبادات كلها فى ركعة واحدة ، يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص .

وفى تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنه عند قوله تعالى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) قال الإمام جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم (والنجم) يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم (إذا هوى) إذا نزل من السماء ليلة المعراج .

وعند قوله تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) : روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : أتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم . وعند قوله تعالى : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) قال ابن عباس : ما عدل يميناً ولا شمالا ولا تجاوز الحد الذى رأى ، وقيل لم يمد بصره إلى غيره ما رأى من الآيات ، وهذا وصف أدب للنبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك المقام ، إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالا . وعند قوله تعالى : (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) قيل هو ما رأى تلك الليلة فى مسراه فى عوده وبدئه ودليله (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) .

أقول : ولست أدرى كيف يستبعد مؤمن بالله قدرته تعالى على خرق النواميس الطبيعية التى تقيدنا ولا تقيده سبحانه ، ويرحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول فى نهج البردة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ركوبة لك من عز ومن شرف لا فى الجياد ولا فى الأينق الرسم
مشيئة الخالق البارى وصنعتـــه وقدرة الله فوق الشك والتهم

إن الإيمان بالغيب يستتبع الإيمان بالمعجزات ومنها الإسراء والمعراج ، والإيمان من كسب القلوب والأرواح ، فلا يقيده العقل بأفقه المحدود الذى لا يتعدى عالم المحسوسات ، وإذا لم نسلم إلا بالمحسوسات أنكرنا الله ، وما ينبنى على الإيمان به سبحانه من سائر المعتقدات من الرسل والملائكة ، والبعث بعد الموت ، والجنة ، والنار ، وكنا فى هذا الضلال متشبهين ببنى إسرائيل الذين حكى الله عنهم فى سورة البقرة :

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) .

ويعجبنى ما يقوله السادة الصوفية حين يقولون : العقل يجول حول الكون ، فإذا نظر إلى المكون ذاب ؛ وحين يقولون : العقل آلة للعبودية يَعْرِفُ به العبد ما عُرِّف ، وليس بآلة للإشراف على الربوبية .

إن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها آيات بينات ، فهو الأمىّ الذى عَلَّم العلماء، وهو الذى نشأ يتيماً فكفل الناس أجمعين، وهو صاحب القرآن الذى بقى من بعده دون سائر ما أيد الله به الرسل الكرام من المعجزات ، وهو الذى ظهر برسالته أخيراً فتقدم على الرسل الأولى ، فكان كالعنوان يكتب آخراً ويقرأ أولا ؛ حاربه أعداؤه سفهاً فانكسروا ، وأيده أصحابه إيماناً فدانت لهم مشارق الأرض ومغاربها ، وتركهم قلة لايجاوزن المائة ألف إلا قليلا فورثوا من بعدهم الإيمان فدان بالإسلام الملايين والبلايين على خلاف ما وقع للأديان السابقة من تراجع واضمحلال وتغيير وتبديل .

إن الله تعالى قص علينا من آياته قصة أهل الكهف ، فقال سبحانه : (وَلَبِثُوا فى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً) ، فى حين أنه قال أيضاً (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) . والذى قدر على إحيائهم دون طعام أو شراب وقال فى رقادهم :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) ، ثم طوى لهم الوقت الطويل إلى أن ظهر يوماً أو بعض يوم خلافاً للعادة ، يقدر على طى المسافات لرسوله صلى الله عليه وسلم فى الإسراء والمعراج ، وأين أصحاب أهل الكهف من ذلك الرسول الأعظم ، بل أين منه النبيون والمرسلون ، صلوات الله عليهم ، الذين دانوا بزعامته عليهم .

الإيمان كلٌّ لا يتجزأ ، فإما إيمان لا يلابسه شك ، وإما زعزعة لا يلابسها يقين ، (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) . نعوذ بالله من الشك والنفاق وسوء الأخلاق وشتات الأمر ، اللهمّ توفنا يا إلهى بكرمك مسلمين مؤمنين موحدين ، وألحقنا بالصالحين آمين .

وإليك تفصيل قصة الإسراء والمعراج لتزداد بها إيمانًا مع إيمانك ويقينًا مع يقينك .

تفصيل قصة الإسراء والمعراج :

وهاك قصة الإسراء والمعراج مفصلة كما رتبها من أقوال الصحابة (وقد رواها أكثر من ٢٦ صحابيًّا) بعد أن أدخل بعضها فى بعض سيدى الحافظ الشامى المتوفى سنة ٩٤٢هـ . وهو صاحب السيرة الشامية . وقد استحسنت نقلها لما تتضمنه من دعائم التربية فى الإيمان والسلوك . فضلا عن أن الإسراء والمعراج مما خص به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التكريم والتشريف ؛ ورضى الله عن سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى إذ يقول فى ذلك التكريم الخاص :

بالعين قد شاهدته متفـــرداً ... فالعين فلتنعم بهـــاتيك النعم

أكرومة لك لا تضاهى رفعـــة ... مخبوءة لك يا مقرب فى القـــدم

خاطبته إذ لا حجاب لدى الخطاب ... ألا هنيئاً ذلك الشرف الأتم

ومقام أو أدنى بذلك شاهد ... والمنعم الأعلى بذاك هو الحكم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال سيدى الحافظ الشامى رضى الله عنه :

بينما النبى صلى الله عليه وسلم عند البيت فى الحِجر (أى حجر إسماعيل الملاصق للكعبة المشرفة) إذ أتاه جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى كانت ليلة أخرى فقال الأول : هوهو ؟ فقال الأوسط : نعم ، وقال الآخر : خذوا سيد القوم الأوسط بين الرجلين ، فاحتملوه حتى جاءوا به زمزم ، فاستلقوه على ظهره فتولاه منهم جبريل ؛ وفى رواية : فرج سقف بيتى ، فنزل جبريل فشق من ثغرة نحره (الموضع المنخفض بين الترقوتين) إلى أسفل بطنه ، ثم قال جبريل لميكائيل ائتنى بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه وأشرح صدره ، فاستخرج قلبه ، فغسله ثلاث مرات ، ونزع ما كان فيه من أذى ، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طسوت من ماء زمزم ، ثم أتى بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه فى صدره ، وملأه علمًا وحلمًا ويقينًا وإسلامًا ، ثم أطبقه ، ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوة .

ثم أتى بالبراق مسرجًا ملجمًا . وهو دابّة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، مضطرب الأذنين (أى طويلهما) إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه ، وإذا هبط ارتفعت يداه ، له جناحان فى فخذيه يحفز (يحث) بهما رجليه . فاستصعب عليه فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال : ألا تستحى يابراق ؟ فوالله ماركبك . وفى رواية عبدالله « قط » أكرم على الله منه ، فاستحيا حتى ارفض عرقًا — (أى سال) وَقَرَّ حتى[1] ركبه ، فانطلق به جبريل ، فكان الآخذ بركابه جبريل وبزمام البراق ميكائيل[2] ، فساروا حتى بلغوا أرضًا ذات نخل فقال له : انزل فصلّ هنا ، ففعل ، ثم ركب فقال : أتدرى أين صليت ؟ قال : لا . قال : صليت بطيبة[3] وإليها المهاجر .

---

(١) وفى رواية : وكانت الأنبياء تركبها قبلى . وقال أنس بن مالك كانت الأنبياء تركبها قبل . وقال سعيد بن المسيب وأبوسلمة بن عبد الرحمن : وهى دابة إبراهيم التى كان يزور عليها البيت الحرام .

(٢) وفى رواية : جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره .

(٣) طيبة هى المدينة المنورة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فانطلق البراق يهوى (يسرع) به ، يضع حافره حيث أدرك طرفه ، فقال له جبريل : انزل فصلّ ، ففعل ثم ركب ، فقال : أتدرى أين صليت ؟ قال لا ، قال : صليت بطور سيناء (جبل بيت المقدس) حيث كلّم الله موسى .

ثم بلغ أرضًا بدت له قصور ، فقال له جبريل : انزل فصل ، ففعل ، ثم ركب وانطلق البراق يهوى به ، فقال له جبريل : أتدرى أين صليت ؟ قال : لا ، قال : صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى .

فبينما هو يسير على البراق إذ رأى عفريتًا من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رآه ، فقال له جبريل : ألا أعلمك كلمات تقولهن إذ قلتهن انطفت شعلته وَخَوَّ لفيه ؟ فقال رسول الله : بلى ، فقال جبريل : قل أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات (أى الكاملة فلا يعتريها نقص) التى لايجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ (أى خلق) فى الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق (أى حوادث) الليل والنهار ، إلا طارقًا يطرق بخير يارحمن ، فانْكَبَّ لفيه وانطفت شعلته فساروا .

وأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال : يا جبريل ، ما هذا ؟ فقال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة بتسعمائة ضعف وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه .

ووجد ريحًا طيبة فقال : يا جبريل ، ما هذه الرائحة ؟ قال : هذه رائحة ماشطة فرعون وأولادها ، بينما هى تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط ، فقالت : باسم الله تعس فرعون ، فقالت ابنة فرعون : أو لك رب غير أبى ؟ قالت : نعم ربى وربك الله ، وكان للمرأة أبناء وزوج ، فأرسل إليهم ، فراود (أى راجع) المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فقال : إنى قاتلكما ، فقال : إحسان منك إلينا إن قتلتنا أن تجعلنا فى بيت ، وفى رواية : قالت : إن لى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قالت : تجمع عظامى بعظام ولدى فتدفننا جميعًا ، قال : ذاك لك بمالك علينا من الحق ، فأمر ببقرة من نحاس ، فأحميت ، ثم أمر بها لتلقى هى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأولادها ، فألقوا واحداً بعد واحد حتى بلغوا أصغر رضيع فيهم ، فقال : يا أمه : قعى ولا تقاعسى (أى لا تتأخرى) فإنك على الحق ، فألقيت هى وأولادها ، قال : وتكلم أربعة وهم صغار : هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم .

ثم أتى على قوم ترضخ (أى تكسر) رءوسهم كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر (أى لا يسكن) عنهم من ذلك شىء ، فقال : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين تثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ، ويأكلون الضريع (أى الشوك اليابس) والزقوم (ثمر شجر كريه الطعم) ورضف جهنم (أى الحجارة المحماة) وحجارتها فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله شيئاً .

ثم أتى قوماً بين أيديهم لحم نضيج فى قدور ولحم آخر خبيث ، فجعلوا يأكلون من الشىء الخبيث ويدعون النضيج الطيب ، فقال : ما هذا ياجبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب ولا شىء إلا خرقته ، فقال ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، وتلا (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ) .

ورأى رجلا يسبح فى نهر من دم يلقم الحجارة ، فقال : من هذا ؟ فقال : هذا آكل الربا .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك يكون عنده أمانات الناس لا يقدر على أدائها ويريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت لا يفتر عنهم من ذلك شىء ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة ، خطباء أمتك يقولون ما لا يفعلون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومر بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم .

وأتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث يخرج فلا يستطيع ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها ، فلا يستطيع أن يردها .

وأتى على واد فوجد ريحًا طيبة باردة وريح المسك وسمع صوتًا ، فقال : يا جبريل ، ما هذا ؟ قال : هذا صوت الجنة تقول يارب آتنى ما وعدتنى فقد كثرت غرفى وإستبرقى وحريرى وسندسى وعبقرى ولؤلؤى ومرجانى وفضتى وذهبى وأكوابى وصحافى وأباريقى ومراكبى وعسلى ومائى ولبنى وخمرى ، قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحًا ولم يشرك بى ولم يتخذ من دونى أنداداً ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى أعطيته ، ومن أقرضنى جزيته ، ومن توكل علىّ كفيته ، إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، قالت : قد رضيت .

وأتى على واد ، فسمع صوتًا منكراً ، ووجد ريحًا منتنة ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول : يارب آتنى ما وعدتنى فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى وعذابى ، وقد بعد قعرى واشتد حرى فآتنى ما وعدتنى ، فقال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وخبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

ورأى الدجال فى صورته رؤيا عين ، لا رؤيا منام ، فقيل يا رسول الله كيف رأيته ؟ قال : فَيْلمَانِيًا (أى عظيم الجثة) ، وهو أحمر هجان (أى شديد البياض) ، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درىّ كأن شعره أغصان شجرة ، شبهه بعبد العزى بن قطن (هلك فى الجاهلية) .

ورأى عموداً أبيض كأنه لؤلؤ تحمله الملائكة فقال : ما تحملون ؟ قالوا عمود الإسلام أمرنا أن نضعه بالشام .

وبينما هو يسير إذ دعاه داع عن يمينه : يا محمد ، انظرنى أسألك ، فلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجبه ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا داعى اليهود ، أما إنك لو أجبته لتهوّدت أمتك .

وبينما هو يسير إذ دعاه داع عن شمال ، فقال : يا محمد انظرنى أسألك ، فلم يجبه ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا داعى النصارى ، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك .

وبينما هو يسير إذا بامرأة حاسرة عن ذراعيها ، وعليها من كل زينة خلقها الله ، فقالت : يا محمد انظرنى أسألك ، فلم يلتفت إليها ، فقال : من هذه يا جبريل ؟ قال تلك الدنيا ، أما إنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة .

وبينما هو يسير إذا هو بشىء يدعوه متنحيًا عن الطريق يقول : هلمّ يا محمد ، فقال جبريل : سر يا محمد ، فقال : من هذا ؟ قال : عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه .

وسار فإذا هو بعجوز على جانب الطريق فقالت : يا محمد انظرنى أسألك ، فلم يلتفت إليها ، فقال : من هذه يا جبريل ؟ قال : إنه لم يبق من عمر الدنيا إلا ما بقى من عمر تلك العجوز .

وبينما هو يسير إذ لقيه خلق من خلق الله ، فقالوا : السلام عليك يا آخر ، السلام عليك يا حاشر ، فقال له جبريل : اردد السلام فرد ، ثم لقيه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم لقيه الثالثة فقال مثل ذلك ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : إبراهيم وموسى وعيسى .

ومرا على موسى وهو يصلى فى قبره عند الكثيب (أى التل) الأحمر رجل طوال (أى طويل) سبط (مسترسل الشعر) آدم (أسمر) كأنه من رجال شنوءة (قبيلة من اليمن) وهو يقول يرفع صوته أكرمته وفضلته ، فرفع إليه فسلم عليه ، فرد عليه السلام وقال : من هذا معك يا جبريل ؟

قال : هذا أحمد ، فقال : مرحبًا بالنبىّ العربىّ الذى نصح لأمته ودعا له بالبركة ، وقال : سل لأمتك اليسر فساروا ، فقال : يا جبريل ، من هذا ؟ قال :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا موسى بن عمران ، قال : ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه قال : ويرفع صوته على ربه ؟ قال : إن الله تعالى قد عرف له حدته .

ومرّ على شجرة كأن ثمرها السرج تحتها شيخ وعياله ، فرأى مصابيح وضوءاً، فقال : من هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا ابنك أحمد ، فقال مرحباً بالنبيّ العربيّ الأميّ الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأمته ، يا بنى إنك لاق ربك الليلة ، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها ، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو كلها فى أمتك فافعل ، ودعا له بالبركة .

فسار حتى أتى الوادى الذى بالمدينة يعنى بيت المقدس ، فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابى (البساط) فقيل : يا رسول الله ، كيف وجدتها ؟ قال : مثل الحممة (بحاء مضمومة أى الفحمة) .

ثم سار حتى انتهى إلى المدينة فدخلها من بابها اليمانى ، وإذا عن يمين المسجد وعن يساره نوران ساطعان ، فقال : يا جبريل ، ما هذان النوران ؟ قال : أما الذى عن يمينك فمحراب أخيك داود ، وأما الذى عن يسارك فعلى قبر أختك مريم ، فدخل المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر ، وأتى جبريل الصخرة التى ببيت المقدس فوضع أصبعه فيها فخرقها ، فشد بها البراق ، وفى رواية مسلم فربطه بالحلقة التى تربط بها الأنبياء .

فلما استوى النبي صلى الله عليه وسلم فى صخرة المسجد ، قال جبريل : يا محمد ، هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ قال : نعم ، قال جبريل : فانطلق إلى تلك النسوة فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة ، فانتهى إليهن فسلم عليهن فرددن عليه السلام ، فقال : من أنتن ؟ فقلن : خيرات حسان ، نساء قوم أبرار ، نقوا فلم يدرنوا ، وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا .

ثم صلى هو وجبريل كل واحد ركعتين ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير ، فعرف النبيين من بين قائم وراكع وساجد ، ثم أذّن مؤذّن وأقيمت الصلاة ، فقاموا صفوفاً ينتظرون من يؤمهم ، فأخذه جبريل بيده فقدمه فصلى بهم ركعتين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى حديث أبى هريرة عند الحاكم وصححه والبيهقى : فلقى أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم فقال إبراهيم : الحمد لله الذى اتخذنى خليلا ، وأعطانى ملكاً عظيماً ، وجعلنى أمة قانتاً يؤتم بى ، وأنقذنى من النار وجعلها علىّ برداً وسلاماً .

ثم إن موسى أثنى على ربه تبارك وتعالى فقال : الحمد لله الذى كلمنى تكليماً ، وجعل هلاك فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى ، وجعل من أمتى قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون .

ثم إن داود أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى جعل لى ملكاً عظيما ، وعلمنى الزبور ، وألان لىَ الحديدَ وسخر لى الجبال يسبحن والطير ، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب .

ثم إن سليمان أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى سخّر لى الرياح ، وسخّر لى الشياطين يعملون لى ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان (القصعة الكبيرة) كالجوابى (الحوض الكبير) وقدور راسيات ، وعلّمنى منطق الطير ، وآتانى من كل شىء فضلا ، وسخّر لى جنوداً الشياطين والطير ، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكاً عظيماً لاينبغى لأحد من بعدى ، وجعل ملكى ملكاً طيباً ليس فيه حساب ولا عقاب .

ثم إن عيسى بن مريم أثنى على ربه تبارك وتعالى فقال : الحمد لله الذى جعلنى كلمته ، وجعل مثلى مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، وعلّمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وجعلنى أبرئ الأكمه (الذى يولد أعمى) والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله، ورفعنى وطهّرنى وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان علينا سبيل . .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كُلّكم أثنى على ربه ، وأنا مثن على ربى :

الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وأنزل علىّ الفرقان فيه تبيان كل شىء ، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتى وسطاً (أى خياراً عدولا) وجعل أمتى هم الأولون (أى فى دخول الجنة)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والآخرون (أى فى الوجود) وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى، ورفع ذكرى ، وجعلنى فاتحًا (أى لأبواب الإيمان) خاتمًا (أى خاتمًا به الشرائع) .

فقال إبراهيم صلى الله عليه وسلم : بهذا فضلكم محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم تذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى ، فقال : أما وجبتها فلا يعلمها إلا الله ، وفيما عهد إلىّ أن الدجال خارج ومعى قضيبان ، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، فيهلكه الله تعالى إذا رآنى ، حتى إن الحجر ليقول : يا مسلم إن تحتى كافراً فتعال فاقتله ، فيهلكهم الله تعالى ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأموج وهم من كل حدب ينسلون ، فيطوون بلادهم ، لايأتون على شىء إلا أهلكوه ، ولايمرون على ماء إلا شربوه ، حتى يرجع الناس يشكونهم إلى ، فأدعوا الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من ريحهم ، فينزل الله تعالى المطر فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر ، ففيما عهد إلىّ ربى أن ذلك إذا كان كذلك ، إن الساعة كالحامل المتم لايدرى أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلا أو نهاراً .

وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم من العطش أشد ما أخذه ، فأتى بقدحين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال ، فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل ، وفى رواية أتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها ، فأتى بإناء منها فيه ماء فشرب منه قليلا، وفى لفظ أنه لم يشرب منه شيئًا ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن فشرب منه حتى روى ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له اشرب فقال : لا أريده قد رويت، فقال جبريل : أما إنها ستحرم على أمتك ، وفى رواية فعرض عليه الماء والخمر واللبن ، وفى رواية العسل بدل اللبن ، فشرب من العسل قليلا وتناول اللبن فشرب منه حتى روى ، فضرب جبريل على منكبه وقال : أصبت الفطرة وإنك لمهدى .

ثم أتى بالمعراج[1] الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم فلم تر الخلائق أحسن من

---

(١) السلم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعراج ، له مرقاة[١] من فضة ومرقاة من ذهب ، وفى رواية لأبى سعيد فى شرف المصطفى أنه أتى بالمعراج من جنة الفردوس منضداً باللؤلؤ ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة ، فصعد هو وجبريل حتى انتهيا إلى باب من أبواب السماء الدنيا يقال له باب الحفظة وعليه ملك يقال له إسماعيل ، وهو صاحب سماء الدنيا ، وفى حديث جعفر بن محمد عند البيهقى يسكن الهواء ، لم يصعد إلى السماء قط ولم يهبط إلى الأرض قط إلا يوم مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين يديه سبعون ألف ملك ، مع كل ملك جنده مائة ألف ، فاستفتح جبريل باب السماء ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل : ومن معك ، قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قال : مرحبًا به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ، ففتح لهما .

فلما خلصا فإذا آدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته ، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول : روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها فى عليين (أعلى الجنة) ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين (موضع فيه كتاب الفجار) ، وعن يمينه أسودة (جمع سواد ويجمع على أساود وهو الشخص) وباب يخرج منه ريح طيبة ، وعن شماله أسودة وباب يخرج منه ريح خبيثة ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك واستبشر ، وإذا نظر قبل شماله حزن وبكى ، فسلم عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فردّ السلام ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبىّ الصالح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا أبوك آدم ، وهذه الأسودة نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، وأهل الشمال منهم أهل النار ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى ، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة إذا نظر من يدخله من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذى عن شماله باب جهنم إذا نظر من يدخله من ذريته بكى وحزن .

ثم مضى صلى الله عليه وسلم هنيهة فإذا هو بأخونة عليها لحم يشرح ليس بقربه أحد ، وإذا بأخونة عليها لحم قد أروح وأنتن عندها ناس يأكلون منها ،

---

(١) درجة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال هؤلاء من أمتك قوم يتركون الحلال ويأتون الحرام ، وفى لفظ : فإذا بأقوام على مائدة عليها لحم يشوى كأحسن مما رئى من اللحم وإذا حوله جيف فجعلوا يقبلون على الجيف يأكلون منها ويدعون اللحم ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ، قال : هؤلاء الزناة يحلّون ما حرّم الله عليهم ويتركون ما أحلّ لهم .

ثم مضى هنيهة فإذا باقوام بطونهم كأمثال البيوت ، فيها الحيّات ترى من خارج بطونهم ، كلما نهض أحدهم خرّ يقول : اللهم لاتقم الساعة وهم على سابلة آل فرعون ، فتجىء السابلة (أبناء السبيل) فتطؤهم ، فسمعهم يضجون إلى الله تعالى ، فقال : يا جبريل : من هؤلاء ، قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس (الجنون) .

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل (كالشفة من الإنسان) ، فتفتح أفواههم ويلقمون حجراً ، وفى رواية : يجعل فى أفواههم صخر من جهنم ثم يخرج من أسافلهم فسمعهم يضجون إلى الله تعالى ، فقال : يا جبريل ، من هؤلاء؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً .

ثم مضى هنيهة فإذا هو بنساء معلقات بثديهن ، ونساء منكسات بأرجلهن . فسمعهن يضججن إلى الله تعالى ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ، قال : هؤلاء اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن .

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون ، فيقال له : كل كما كنت تأكل لحم أخيك ، فقال : ياجبريل ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الهمّازون من أمتك اللمّازون[1] .

ثم صعد إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ، قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبًا به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ، ففتح لهما ، فلما خلصا فإذا هو بابنى الخالة عيسى بن مريم ويحيى

---

(١) الهمازون : هم الذين يغتابون الناس فى غيبتهم ، واللمازون : العيابون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن زكريا ، شبه أحدهما بصاحبه ثيابهما وشعرهما ، ومعهما نفر من قومهما ، وإذا عيسى جعد (مجموع الجسم) مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس (مسترسل الشعر) كأنما خرج من ديماس (أى حمام) شبهه بعروة ابن مسعود الثقفى (أحد الصحابة الكرام) ، فسلم عليهما فردا عليه السلام ، ثم قالا : مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح ودعوا له بخير .

ثم صعدا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل قيل : من هذا ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبًا به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ، ففتح ، فلما خلصا فإذا هو بيوسف ومعه نفر من قومه ، فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبىّ الصالح ودعا له بخير ، وإذا هو أعطى شطر الحسن ، وفى رواية أحسن ما خلق الله ، قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف .

ثم صعد إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبًا به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ، ففتح لهما ، فلما خلصا فإذا هو بإدريس رفعه الله مكانًا عليًّا ، فسلمّ عليه فرد السلام ، ثم قال مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح ثم دعا له بخير .

ثم صعد إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أوقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبًا به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ، ففتح لهما فلما خلصا فإذا هو بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء تكاد تضرب إلى سرته من طولها ، وحوله قوم من بنى إسرائيل (يعقوب عليه السلام) وهو يقص عليهم ، فسلّم عليه ، فرد عليه السلام ، ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم دعا له بخير ، فقال : يا جبريل من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا ؟ قال هذا الرجل المحبب فى قومه هارون بن عمران .

ثم صعد إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبًا به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ففتح لهما فجعل يمر بالنبى والنبيين معهم الرهط والنبى والنبيين ليس معهم أحد ثم مر بسواد عظيم ، فقال : من هذا ؟ قيل : موسى وقومه ، ولكن ارفع رأسك ، فإذا بسواد عظيم قد سد الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب ، فقيل : هؤلاء أمتك ، وسوى هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، فلما خلصا فإذا بموسى بن عمران رجل آدم طوال كأنه من رجال شنوءة كثير الشعر لو كان عليه قميصان لنفذ الشعر دونهما ، فسلم عليه النبى صلى الله عليه وسلم فرد عليه السلام ، ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم دعا له بخير ، وقال : يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا ، بل هذا أكرم على الله منى ، فلما جاوزه النبى صلى الله عليه وسلم بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال : أبكى لأن غلامًا بعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل الجنة من أمتى ، يزعم بنو إسرائيل أنى أكرم بنى آدم على الله ، وهذا رجل من بنى آدم خلفنى فى دنيا ، وأنا فى أخرى ، فلو أنه فى نفسه لم أبال ولكن مع كل نبى أمته .

ثم صعدا ، فلما انتهيا إلى السماء السابعة رأى فوقه رعداً وبرقًا وصواعق ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبًا به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ففتح لهما ، فسمع تسبيحًا فى السموات العلا مع تسبيح كثير سبّحت السموات العلا من ذى المهابة مشفقات من ذى العلا بماعلا ، سبحن العلى الأعلى سبحانه وتعالى ، فلما خلصا فإذا النبى صلى الله عليه وسلم بإبراهيم الخليل رجل شمط جالس عند باب الجنة على كرسى مسند ظهره إلى البيت المعمور ومعه نفر من قومه ، فسلم عليه النبى صلى الله عليه وسلم فردّ السلام ، ثم قال مرحبًا بالابن الصالح والنبى الصالح ، وقال : مر أمتك فليكثروا من غراس الجنة ، فإن تربتها طيبة وأرضها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واسعه فقال : وما غراس الجنة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وفى رواية : أقرئ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأن غراسها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وهو أشبه ولده به ، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس (القرطاس ما يكتب فيه) ، وقوم فى ألوانهم شىء ، فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شىء ، ثم دخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شىء ، ثم دخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم ، فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم ، فقال : يا جبريل من هؤلاء البيض الوجوه ؟ ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء ؟ وما هذه الأنهار التى دخلوها ؟ فقال : أما هؤلاء البيض الوجوه ، فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم (أى بشرك) وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فقوم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم ، وأما هذه الأنهار فأولها رحمة الله ، والثانى نعمة الله ، والثالث سقاهم ربهم شراباً طهوراً .

وقيل له : هذا مكانك ومكان أمتك ، وإذا هو بأمته شطران : شطر عليهم ثياب كأنها القراطيس ، وشطر عليهم ثياب رمد ، فدخل البيت المعمور ودخل معه الذين عليهم الثياب البيض ، وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمد (فى لون الرماد) وهم على خير ، فصلى ومن معه من المؤمنين فى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، ثم خرج ومن معه صلى الله عليه وسلم .

ثم رفع إلى سدرة (شجرة) المنتهى ، وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوق فيقبض منها ، وإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن (غير متغير) ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، يسير الراكب فى ظلها سبعين عاماً لايقطعها ، وإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها كآذان الفيلة تكاد الورقة تغطى هذه الأمة .

ثم عرج به حتى ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام ، ورأى ، رجلاً مغيبا فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نور العرش فقال : من هذا ؟ أملك ؟ قيل: لا ، قال: أنبي ؟ قيل : لا ، قال : من هو ؟ قيل : هذا رجل كان فى الدنيا لسانه رطب بذكر الله وقلبه معلق بالمساجد ولم يستسب لوالديه قط .

فرأى[1] ربه سبحانه وتعالى ، فخر النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً ، وكلمه ربه تعالى عند ذلك فقال له : يا محمد ، قال : لبيك يارب ، فقال : سل ، فقال : إنك اتخذت إبراهيم خليلا وأعطيته ملكاً عظيماً ، وكلمت موسى تكليماً ، وأعطيت داود ملكاً عظيماً ، وألنت له الحديد وسخّرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً وسخّرت له الرياح وأعطيته ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوارة والإنجيل وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك ، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل .

فقال سبحانه وتعالى : قد اتخذتك حبيباً (قال الراوى : وهو مكتوب فى التوارة حبيب الله) ، وأرسلتك للناس كافة بشيراً ونذيراً ، وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، لا أذكر إلا ذُكرت معى ، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون ، وجعلت أمتك لاتجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم ، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثانى لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام والهجرة والجهاد والصدقة والصلاة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت

---

(١) رؤية بلا كيف ، وقد عجل الله له الرؤية فى الدنيا قبل سائر المؤمنين الذين يتجلى عليهم سبحانه بالرؤية فى الآخرة مصداقاً لقوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) . ويعاقب الله يوم القيامة أهل الكفر بالحجاب فلا يرونه مصداقاً لقوله تعالى : (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك .

قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَضَّلَنِي ربي ، أرسلني رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وألقى في قلب عدوي الرعب من مسيرة شهر ، وأحلّ لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ، وعرضت على أمتي فلم يَخْفَ عليّ التابع والمتبوع ، ورأيتهم أتوا على قوم ينتعلون بالشعر ، ورأيتهم أتوا على قوم عراض الوجوه صغار الأعين كأنما خرزت أعينهم بالمخيط ، فلم يخف عليّ ما هم لاقون من بعدي ، وأمرت بخمسين صلاة . اهـ . وأعطى ثلاثاً : أنه سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين ،

وفي حديث ابن مسعود : وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا المقحمات ، ثم انجلت عنه السحابة ، وأخذ بيده جبريل فانصرف سريعاً ، فأتى على إبراهيم فلم يقل شيئاً ، ثم أتى على موسى قال ونعم الصاحب كان لكم فقال : ما صنعت يا محمد ، ما فرض ربك عليك وعلى أمتك ؟ قال : فرض عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة كل يوم وليلة قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك ، فإن أمتك لاتطيق ذلك ، فإني قد خبرت الناس قبلك ، وبلوت بني إسرائيل وعالجتهم أشد المعالجة على أدنى من هذا فضعفوا وتركوه ، وأمتك أضعف أجساداً وأبداناً وقلوباً وأبصاراً وأسماعاً ، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل يستشيره ، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت ، فرجع سريعاً حتى انتهى إلى الشجرة فغشيته السحابة وَخَرَّ ساجداً وقال : رب خَفِّفْ عَنَّا ، وفي لفظ عن أمتي ، فإنها أضعف الأمم ، قال : قد وضعت عنكم خمساً ، ثم انجلت السحابة ورجع إلى موسى فقال : وضع عني خمساً ، فقال ارجع إلى ربّك واسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فلم يزل يرجع بين موسى وبين ربه يحط عنه خمساً خمساً حتى قال : يا محمد : قال : لبيك وسعديك . قال : هن خمس صلوات كل يوم وليلة ، لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة لا يبدل القول لديّ ولا ينسخ كتابي تخفيفاً عنك كتخفيف خمس صلوات ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن هَمّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هَمّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، فنزل حتى انتهى إلى موسى فأخبره ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فقال : قد راجعت ربى حتى استحييت منه ، ولكن أرضى وأسلم ، فنادى مناد أن قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى فقال له موسى : اهبط باسم الله .

وما أرق ما قال سيدى ابن وفا رضى الله عنه : إنما كان ترجيع موسى عليه الصلاة والسلام للنبي صلى الله عليه وسلم فى شأن الصلوات لتكرر مشاهدة أنوار المرات ومما قاله شعرا :

والسر فى قول موسى إذ يراجعه ... ليجتلى النور فيه حيث يشهده

يبدو سناه على وجه الرسول فيا ... لله حسن رسول إذ يرده

ثم ركب منصرفًا ، فمر بعير قريش بمكان كذا وكذا منها جمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذى العير نفرت واستدارت وصرع ذلك البعير وانكسر ، ومر بعير قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان ، فسلم عليهم فقال بعضهم : هذا صوت محمد ، ثم أتى أصحابه قبيل الصبح بمكة ، فلما أصبح قطع وعرف أن الناس تكذبه ، فقعد حزينًا ، فمر به عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له كالمستهزئ : هل كان من شيء ؟ قال : نعم ، قال : ما هو ؟ قال : أسرى بى الليلة ، فقال : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس ، قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم ، فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه ، قال : أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى ؟ قال : نعم ، قال : يا معشر بنى كعب بن لؤى هلموا فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما ، فقال : حَدِّث قومك بما حدثتنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أسرى الليلة بى ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس ، قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم ، فمن بين مصفق ، ومن بين واضع يده على رأسه متعجبا ، وضجوا وأعظموا ذلك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال : المطعم بن عدى : كل أمرك كان قبل اليوم أممًا غير قولك اليوم ، أنا أشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً ، تزعم أنك أتيته فى ليلة ، واللات والعزى لا أصدقك ، فقال أبو بكر : يا مطعم بئس ما قلت لابن أخيك ، جبهته وكذبته ، أنا أشهد أنه صادق ، فقالوا : يا محمد صف لنا بيت المقدس ، كيف بناؤه ، وكيف هيئته ، وكيف قربه من الجبل ، ومن القوم من سافر إليه ، فذهب ينعت لهم : بناؤه كذا وهيئته كذا ، وقربه من الجبل كذا ، فما زال ينعت لهم حتى التبس عليه النعت ، فكرب كربًا ما كرب مثله ، فجيء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال ، فقالوا : كم للمسجد من باب ؟ ولم يكن عدها ، فجعل ينظر إليه ويعدّها بابًا بابًا ويعلمهم ، وأبو بكر يقول : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب .

ثم قالوا لأبى بكر : أفتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم ، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوه ورواحه ، فبذلك سُمّى أبا بكر الصِّدِّيق .

ثم قالوا : يا محمد ، أخبرنا عن عيرنا ، فقال : أتيت على عير فلان بالروحاء قد أضلوا ناقة لهم ، فانطلقوا فى طلبها ، فانتهيت إلى رحالهم فليس بها منهم أحد ، وإذا قدح ماء فشربت منه ، ثم انتهيت إلى عير بنى فلان بمكان كذا وكذا فيها جمل أحمر عليه غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذيت العير نفرت وصرع ذلك البعير وانكسر ، ثم انتهيت إلى عير بنى فلان فى التنعيم يقدمها جمل أورق عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان وهاهى ذى تطلع عليكم من الثنية ، قالوا : فمتى تجىء ؟ قال : يوم الأربعاء ، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون وقد ولى النهار ولم تجئ ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم فزيد له فى النهار ساعة ، وحبست عليه الشمس حتى دخلت العير ، فاستقبلوا الإبل فقالوا : هل ضل لكم بعير ؟ قالوا : نعم ، فسألوا العير الآخر فقالوا : هل انكسر لكم ناقة حمراء ؟ قالوا : نعم ، قالوا : فهل كان عندكم قصعة من ماء ؟ فقال رجل أنا والله وضعتها فما شربها أحد منا ولا أهريقت فى الأرض ، فرموه بالسحر وقالوا : صدق الوليد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأنزل الله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا الرؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) .

هذا ، ولبعض العلماء الأجلاء تعقيبات طريفة على تلك القصة ومن ذلك :

١ — قال سيدى ابن المنير رضى الله عنه : كانت كرامته صلى الله عليه وسلم المناجاة على سبيل المفاجأة كما أشار إليه صلى الله عليه وسلم فى قوله بينما أنا . . . ، وفى حق موسى عليه السلام عن ميعاد واستعداد، فحُمِلَ عنه صلى الله عليه وسلم ألم الانتظار ، ويؤخذ من ذلك أن مقام النبى صلى الله عليه وسلم مقام المراد (المطلوب) وهو أرفع بالنسبة إلى مقام المريد (الطالب) .

٢ — وقال سيدى الحافظ الشامى رضى الله عنه : قول خازن السماء : «أو قد أرسل إليه ؟ » إنما هو سؤال تعجب من نعمة الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم بذلك واستبشار به ، وقول الخازن : « مرحبًا به » يدل على أن الحاشية إذا فهموا من سيدهم عزمًا لإكرام واحد أن يبشروه بذلك وإن لم يأذن لهم فيه .

٣ — لا خلاف أن النبوة أعلى من صلاح الصالحين من الأمم ، فقول الأنبياء مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح يحقق أن الصلاح المضاف إلى الأنبياء غير الصلاح المضاف إلى الأمم ، وصلاح الأنبياء صلاح كامل ، لأنهم يزول بهم كل فساد ، فلهم كل صلاح ، ومن دونهم الأمثل فالأمثل، فكل واحد يستحق اسم الصلاح على قدر مايزال به أو منه من الفساد ، وكرروا وصفه صلى الله عليه وسلم بالصلاح ، لأن الصالح هو الذى يقوم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد ، فمن ثم كانت كلمته جامعة مانعة شاملة لسائر الخلال المحمودة ، ولم يقل أحد منهم مرحبًا بالنبى الصادق ولا بالنبى الأمين لأن الصلاح شامل لسائر أنواع الخير .

٤ — لم يكن بكاء موسى عليه السلام حسداً للنبى صلى الله عليه وسلم ، معاذ الله ، فإن الحسد فى ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين ، فكيف من اصطفاه الله تعالى ، بل كان أسفاً على ما فاته من الأجر الذى يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لتنقيص أجره ، لأن لكل نبي مثل أجر من تبعه ، ولهذا كان من اتبعه فى العدد دون من اتبع نبينا صلى الله عليه وسلم مع طول مدتهم بالنسبة إلى مدة هذه الأمة .

٥ ــ قول موسى عليه السلام « غلام » ليس على سبيل النقص بل على سبيل التنويه بقدرة الله تعالى وعظيم كرمه ، إذ أعطاه صلى الله عليه وسلم فى ذلك السن ما لم يعط أحداً قبله ممن هو أسن منه ، وقال الخطابى : العرب تسمى الرجل المستجمع السن غلاماً ما دامت فيه بقية من القوة ، وقال الحافظ ابن حجر : ويظهر أن موسى عليه السلام أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا صلى الله عليه وسلم من استمرار القوة من الكهولة ، وإلى أنه دخل فى سن الشيخوخة ، ولم يدخل فى بدنه هرم ولا عرا قوته نقص ، حتى إن الناس لما رأوه صلى الله عليه وسلم مردفاً لأبى بكر عند قدومه المدينة أطلقوا عليه اسم « الشاب » وعلى أبى بكر اسم « الشيخ» مع كونه صلى الله عليه وسلم فى العمر أسن من أبى بكر .

٦ ــ وقال ابن بطال : قول موسى عليه السلام : « رب لم أظن أن ترفع علىّ أحداً » فهم موسى عليه السلام من اختصاصه بكلام الله تعالى بقوله : (إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِكَلَامِى) أن المراد بالناس هنا البشر كلهم، وأنه استحق بذلك ألا يرفع عليه أحداً ، فلما فضل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أعطاه من المقام المحمود وغيره ارتفع على موسى وغيره .

٧ ــ قوله فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال شيخ الإسلام تقى الدين السبكى رحمه الله : المراد تشريف النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر ، أى لو كان له ذنوب لغفرت ولم يكن له ذنب ألبتة ، وقال سيدى القاضى عياض رضى الله عنه : المقصد ، أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أن لو كان ، وقال سيدى ابن عطية رضى الله عنه : المعنى تشريف النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم ولم تكن ذنوب ألبتة .

٨ ــ وقال سيدى ابن دحية رضى الله عنه: فى عرض الجنة عليه صلى الله عليه وسلم كرامة عظيمة لأنه كان يعرض الجنة على أمته ليبشرها كما قال عن ربه تبارك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتعالى: (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)، فأراد الله تعالى أن يعاين النبي صلى الله عليه وسلم ما يعرضه على أمته ليكون وصفه إياها عن مشاهدة، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو الناس إلى الجنة وهي الدار التي هيأها الله لضيافة عباده المؤمنين؛ ويحتمل أنه أراه إياها ليعلم خسة الدنيا في جنب ما رآه فيكون في الدنيا أزهد وعلى الشدائد أصبر.

٩ — وقال أيضاً رضي الله عنه: إنما عرضت عليه صلى الله عليه وسلم النار ليكون في القيامة إذا قال سائر الأنبياء: نفسي نفسي يقول صلى الله عليه وسلم: أمتي أمتي، وذلك حين تسجر جهنم، ولذلك أمن الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم، فقال عز من قائل: (يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ)، والحكمة في ذلك أن يفزع إلى شفاعة أمته صلى الله عليه وسلم، ولو لم يؤمنه لكان مشغولا بنفسه كغيره من الأنبياء، لأنهم لم يروا قبل يوم القيامة شيئاً منها، فإذا رأوها فزعوا، وكفت ألسنتهم عن الخطبة والشفاعة من هولها، وشغلتهم أنفسهم عن أممهم، وهو صلى الله عليه وسلم قد رأى ذلك فلا يفزع منها مثلما فزعوا، فقدر على الخطبة والشفاعة.

١٠ — وقال رضي الله عنه: خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرؤية والمكالمة لأنه صاحب الشفاعة في القيامة، فحصل له ذلك قبلها لئلا يقع له حشمة البديهة كما يقع لغيره من الأنبياء.

١١ — وقال سيدي السهيلي رضي الله عنه: فرضت الصلاة ليلة المعراج للتنبيه على فضلها، حيث لم تفرض إلا في الحضرة المقدسة المطهرة، ولذلك كانت الطهارة من شأنها ومن شرائطها، والتنبيه على أنها مناجاة الرب، وأن الرب تبارك وتعالى مقبل بوجهه على المصلي يناجيه ويقول: حمدني عبدي، أثنى علي عبدي إلى آخر سورة الفاتحة.

١٢ — وقال سيدي ابن أبي جمرة: الحكمة في كون إبراهيم عليه السلام لم يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلب التخفيف، أن مقام الخلة إنما هو الرضا والتسليم، والكلام في هذا الشأن ينافي ذلك المقام، وموسى هو الكليم، والكليم أعطى الإدلال والانبساط.

١٣ — وقال بعض أهل الإشارات : لما تمكنت نار المحبة من قلب موسى عليه السلام ، أضاءت له أنوار نور الطور ، فأسرع إليها ليقتبس فاحتبس ، فلما نودى فى النادى اشتاق إلى المنادى ، فكان يطوف فى بنى إسرائيل يقول : من يُحَمِّلُنِى رسالة إلى ربى ، مراده بذلك أن تطول المناجاة مع الحبيب ، فلما مر عليه نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج رددە فى أمر الصلاة ليستفيد رؤية حبيب الحبيب ، ويرى من رأى كما قيل :

وأستنشق الأرواح من نحو أرضكم ... لعلى أراكم أو أرى من يراكمُ
فأنتم حياتى إن حييت وإن أمت ... فياحبذا إن مت عبد هواكمُ

١٤ — وقال سيدى ابن أبى جمرة رضى الله عنه : فى امتناع النبى صلى الله عليه وسلم فى المرة العاشرة من طلب التخفيف دليل على أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد إسعاد عبد حصر اختياره فى مرضاة ربه وهو فرض الصلوات الخمس ، وذلك تكريم له صلى الله عليه وسلم وترفيع ، لأنه لو رجع صلى الله عليه وسلم وطلب التخفيف فلم يخفف الله كما خفف أولا ، لكان اختياره صلى الله عليه وسلم مخالفًا للمقدور . وقال آخر : إنه لو طلب التخفيف وخفف فى المرة الأخيرة لحرمت أمته من الصلاة ، فقد حط الله فى كل مرة خمسًا خمسًا ، فلم يبق إلا الخمس الأخيرة ، فلم يرد أن يحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من شرف مناجاة الله فى اليوم والليلة فى الصلوات الخمس ، أقول : وما أكرم ربّى حين خلى بين عباده المؤمنين وبين محراب الصلاة فرضًا ونفلا ، فشرفهم بذلك أيّما تشريف ، ولله الحمد والمنة عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ، فالصلاة صلة قوية بين العبد وربه ، يناجى ربه فيها ويناجيه ربه ، ولذلك قال بعض العارفين : إذا وقفتُ فى الصلاة لا يهمنى منها إلا ما أقوله أو يقال لى .

١٥ — فى قوله تعالى : (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) قال سيدى الحافظ الشامى رضى الله عنه : نسبة الدنو والتدلى ليست إلى الله تعالى ، وإنما الدنو والقرب من الله تعالى إليه صلى الله عليه وسلم كناية عن جزيل فوائده إليه ، وجميل عوائده عليه ، وتأنيس لاستيحاشه بانقطاع الأصوات عنه ، وبسط بالمكالمة وإكرام بشرائف مننه ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتأوّل فى دنوّه تعالى منه ما يتأوّل به قوله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر » على أحد الوجوه من أن نزوله تعالى إنما هو دنو إفضال وإجمال ، وقبول توبة ، وإحسان بمغفرة وإشفاق .

ويرحم الله الإمام البوصيرى إذ يقول فى همزيته :

وترقى به إلى قاب قوسين وتلك السيادة القعساء

رتب تسقط الأمانىّ حسرى دونها ما وراءهن وراء

١٦ ــ وأود أن أضيف إلى ما تقدم أن ثبات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقام (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) إنما هو اختصاص اختصه به رب العزة الذى دعاه ليريه من آياته ، وهو اختصاص عظيم ، يدلّك على عظمته أن جبل الطور اندك من هيبة المتجلى حين تجلى سبحانه للجبل كما بين ذلك قول الله تعالى : (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً) وقد قال العلماء : لو لم يدرك الله تعالى برحمته كليمه موسى عليه السلام ما قام من صعقته ، فإذا قارنت بين ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم وبين دكة الجبل ، بان لك فضل الله العظيم واختصاصه الكبير الذى ناله أحب أحبابه وأصفى أصفيائه صلى الله عليه وسلم ؛ ولا تستكثر الفضل على ربك فى هذا المقام ، فقد كان سيدنا موسى ضيفاً وكان رسولنا المستضاف ، ومستضاف الكرم أولى بالتكريم من ضيف الكرم ، والمحبوب أكثر رعاية من المحب ، وإن كانا معاً مكرّمَيْن فى ساحة المجد ، وعلى بساط القرب ، وفوق كل ذى علم عليم .

وقد قال سيدنا موسى عليه السلام داعياً : (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) ، وقيل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ) ؛ وقال سيدنا موسى عليه السلام فى دعوته (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) ، وقيل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فَأَعْرِضْ عَنهمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً) ؛ وقال سيدنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موسى عليه السلام : (إن مَعِيَ رَبى سَيَهْدِينِ) فَضَلَّت أُمته ولم تثبت معه على الإيمان ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله مَعَنَا) فتضاعف المؤمنون من بعده صلى الله عليه وسلم .

وأكرم الله المؤمنين بمتابعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاهد من قوله تعالى فى سورة التحريم (... يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) .

وقوله تعالى فى سورة الحديد : (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وكانت الجنة جزاء المطيعين لرسوله صلى الله عليه وسلم لأنه تعالى قال : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) ، وقال سبحانه : (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) ، وسيكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته نصف الجنة أو أكثر ، لأن أمته أعظم الأمم ، ولأنه صلوات الله وسلامه عليه أكثر النبيين تبعاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الخامس

الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة

الإذن الإلهى بالقتال :

قال ابن إسحق :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ، ولم تحلل له الدماء ، وإنما يؤمر بالدعاء إلى الله ، والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين ، حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم عن بلادهم ، فهم من بين مفتون فى دينه ، ومن بين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فراراً منهم ، منهم مَنْ بأرض الحبشة ، ومنهم مَنْ بالمدينة ، وفى كل وجه .

فلما عتت[1] قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا ونفوا من عَبَدَ الله ووحده ؛ وصدّق نبيه واعتصم بدينه ، أَذِنَ الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال ، والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم ، فيما بلغنى عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى فى سورة الحج :

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ

---

(١) عتت : تجبرت وازدادت كفراً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) ، أى إنى أحللت لهم القتال لأنهم ظُلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله ، ويعنى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين ؛ ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه فى سورة البقرة : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) ، أى حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ، ويعبد الله وحده فلا يعبد معه غيره .

انتشار الإسلام بالمدينة :

ولما عاد أهل بيعة العقبة من الأنصار إلى المدينة ، أظهروا الإسلام بها ، ثم أخذ المسلمون يهاجرون سرًّا من مكة إلى المدينة ، ولم يبق بمكة مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا اثنان من السابقين الأولين هما سيدنا أبو بكر وسيدنا علىّ رضى الله عنهما .

هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة :

فلما أَذِنَ الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانًا وداراً تأمنون بها » .

قال ابن إسحق :

فخرجوا أرسالا (جماعة بعدها جماعة) ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

أبو سلمة أول المهاجرين إلى المدينة :

قال ابن إسحق :

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المهاجرين من قريش من بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله (وهو ابن عمة رسول الله — برة بنت عبد المطلب — وأخوه من الرضاعة) هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة . وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة . فلما آذته قريش . وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً . وقد حضر بدراً ، وجرح فى غزوة أحد والتأم جرحه . ثم عاد ونغر عليه[١] ومات به . وقد كبر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع تكبيرات فقالوا : يا رسول الله أسهوْت أم نسيت ؟ فأجاب : لم أسه ولم أنس ، ولو كبرت على أبى سلمة ألفًا كان أهلا لذاك .

هجرة السيدة أم سلمة رضى الله عنها :

واقرأ فى عجب وإعجاب ما كان فى هجرة زوجته السيدة أم سلمة ، التى أسعدها الله بزواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد استشهاد زوجها أبى سلمة .

فقد قالت فيما رواه بسنده ابن إسحق :

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحّل[٢] لى بعيره ثم حملنى عليه . وحمل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى . ثم خرج بى يقود بعيره ، فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غَلَبْتَنَا عليها . أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده . فأخذونى منه ، قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة . فقالوا : لا والله . لانترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبها (أى زوجها) . قالت : فتجاذبوا بُنَىَّ « سلمة » بينهم حتى خلعوا يده . وانطلق به بنو عبد الأسد . وحبسنى بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة . قالت : ففرق بينى وبين زوجى وبين ابنى ، قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس فى الأبطح . فما أزال أبكى

---

(١) نغر عليه : عاوده ألم الجرح .

(٢) جهز البعير للسفر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى أمسى سنة أو قريبًا منها ، حتى مَرّ بى رجل من بنى عمى – أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى ، فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة . فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

قالت : فقالوا لى : الحقى بزوجك إن شئت ، قالت : ورد بنو عبد الأسد إلىّ عند ذلك ابنى ، قالت : فارتحلت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى . ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، قالت : وما معى أحد من خلق الله ، قالت : فقلت أتبلّغ [١] بمن لقيت حتى أقدم على زوجى ، حتى إذا كنت بالتنعيم (من ضواحى مكة) لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، أخا بنى عبد الدار ، فقال لى : إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجى بالمدينة ، قال : أومامعك أحد ؟ قالت : فقلت : لا والله ، إلاّ الله وبنىّ هذا .

أيها القارئ الكريم : ألاَ يثير ذلك إعجابك من يقينها وعزمها وتضحيتها فى سبيل الله ، وكيف لايثير إعجابك أن ترى سيدة تركب ناقتها مع طفلها الصغير نحواً من أسبوعين فى صحراء شاسعة حتى تبلغ المدينة ، وليس معها من يعينها على مشقة الرحلة الطويلة على ظهر الإبل ، مع ما تحتاج إليه من إناخة الدابة ، وإنزال الرحل والعلف ثم شدّ الحمل عليها ، فضلا عن رعاية طفلها الكسير !!

لاشك أنه موقف يثير عطفك وإشفاقك ، ولكن الله أرحم بها منى ومنك . فانظر كيف دبّر الله لها أمرها على غير ترتيب منها ، فسخّر لها رجلا ذا مروءة عربية فطرية فأعانها ويسّر أمرها حتى أبلغها المدينة ، واستمع إليها وهى تحكى ما كان منه :

قالت رضى الله عنها : قال عثمان : والله مالك من مَتْرَك [٢] ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معى يهوى بى . فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت استأخر

---

(١) أستعين .

(٢) لايجوز أن أتركك وحدك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ببعيرى فحط عنه ، ثم قيده فى الشجرة ، ثم تنحى عنى إلى الشجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى ، وقال : اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية عمرو بن عوف بقباء ، قال : زوجك فى هذه القرية — وكان أبو سلمة بها نازلا — فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعًا إلى مكة .

قال : فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

أقول : وكان عثمان يوم هجرته بأم سلمة على الكفر ، وإنما أسلم فى هدنة الحديبية وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وإلى عمه شيبة بن عثمان مفاتيح الكعبة فى عام الفتح . وقد قتل عثمان بن طلحة رضى الله عنه شهيداً بأجنادين فى أول خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

قال ابن إسحق :

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فيها بالهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن ، وإلا علىّ بن أبى طالب وأبو بكر الصديق رضى الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

مؤامرة يكشفها الله تعالى :

قال ابن إسحق :

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صلى الله عليه وسلم إليهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة — وهى دار كانت لقصى ابن كلاب ، كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، يتشاورون فيما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه .

أقول : وأطلعه الله على ما تشاوروا فيه بقوله تعالى فى سورة الأنفال : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) ، فقد اختلفت آراؤهم بين حبسه فى بيت يغلقونه عليه ، فخافوا أن يقاتلهم أهله بدافع العصبية ، ويخلصوه من أيديهم ، وبين أن يخرجوه من مكة ، فخافوا أن يجتمع الناس عليه لحلاوة منطقه فيقاتلهم بهم ، وبين أن يختاروا من كل بطن من بطون قبائلهم شاباً جلداً ليقتلوه قتلاً جماعياً فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حربهم ، فإذا طلبوا الدية قدموها لهم . وهذا الرأى الأخير هو الذى استحسنوه بعد التشاور فى دار الندوة .

الإمام علىّ يفدى الرسول بنفسه :

يقول ابن إسحق :

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه ؛ ثم يقول بن إسحق : فلما كانت عتمة من الليل ، اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ، قال لعلىّ بن أبى طالب : نم على فراشى وتسجّ[1] ببردى هذا الحضرمىّ الأخضر . فنم فيه . فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذلك إذا نام .

خروج الرسول وهم لايشعرون :

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب فى يده ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم

(١) تسج ببردى : اجعل ثوبى غطاء لك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس :

(يس * وَالْقُرآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) ، حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ولم يبق منهم رجل إلَّا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قال ابن إسحق : فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمداً ، قال : خيَّبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم ؟ قال ابن إسحق : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علىّ رضى الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا .

قال ابن إسحق :

حدثنى من لا أتهم ، عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قالت : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، والخروج من مكة من بين ظهرى قومه ، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة ، فى ساعة كان لا يأتى فيها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإذن بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم :

قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلاّ لأمر حدث ، قالت : فلما دخل ، تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عنى من عندك ، فقال : يا رسول الله إنما هما ابنتاى ، وما ذاك ؟ فداك أبى وأمى ، فقال : إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة ، قالت : فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، قال : الصحبة ، قالت : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ ، ثم قال : يا نبىّ الله : إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا ، فاستأجرا عبد الله بن أريقط — وكان مشركاً — يَدُلُّهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما .

قال ابن إسحق :

ولم يعلم — فيما بلغنى — بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج إلا علىّ بن أبى طالب ، وأبو بكر الصديق ، وآل أبى بكر ، أما علىّ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلّف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلاّ وضعه عنده ، لِمَا يعلم من صدقه وأمانته صلىّ الله عليه وسلم ، أقول : فانظر إلى غرابة موقفهم منه ، فإنهم كانوا واثقين من صدقه وأمانته حتى ائتمنوه على نفائسهم ، حتى إذا دعاهم إلى الله كذبوه ، مع أنهم لم يجربوا عليه كذباً من قبل ، بل وثقوا بصدقه كل الوثوق ، وصدق الله سبحانه إذ يقول فى سورة الحج :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فى الصُّدُور) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاختباء فى الغار :

قال ابن إسحق :

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج ، أتى أبا بكر بن أبى قحافة ، فخرجا من خوخة[١] لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار بثور[٢] فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها[٣] عليهما . يأتيهما إذا أمسى فى الغار ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما .

وفاء أبى بكر :

قال ابن هشام :

وحدثنى بعض أهل العلم أن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال :

انتحى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا، فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حية يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .

أقول : أرأيت كيف كان الصدّيق رضى الله عنه يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يفتديه بنفسه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو حب لله ، وما دام الصدّيق رضى الله عنه قد بلغ الذروة فى حب الرسول الأكرم ، فقد بلغ الذروة فى حب ربه الأعظم ، فكان المؤمن الأول فى هذه الأمة بين المؤمنين وقد بلغ عددهم الملايين ، وأثبت الله له الصحبة فى كتابه الكريم فى قوله تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فى الْغَارِ إِذ يَقولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا) ، فمن أنكر صحبة

---

(١) باب صغير .

(٢) جبل بأسفل مكة .

(٣) يرجع بالغنم بعد أن ترعى إلى الغار لتضيع آثار أقدام المتصلين بالرسول وصاحبه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبى بكر فقد كفر ، لأنه يكذب كلام الله .

وحق لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن يغبط الصدّيق على تلك الصحبة فى الغار ، فقد كان يقول منوهًا بفضل الصديق رضى الله عنه : كنت أحب أن يكون لى يومان من أيام أبى بكر بحياتى كلها ، يوم أن صحب الرسول فى الغار ، ويوم أن خالفنا فى حرب أهل الردة[١] .

كما كان يقول : رحم الله أبا بكر ، إنه كان سيدنا وأعتق سيدنا (يشير إلى بلال ويلقبه بالسيادة ، فإن بلالا رضى الله عنه عُذّب فى الله ، فاشتراه الصدّيق من أمية بن خلف وأعتقه ، فما أعظم ديننا الذى ساد به العبيد ، ولا فضل فيه لعربىّ على عجمىّ إلا بالتقوى) . وما أعجب أمر سيدنا أبى بكر ، فقد كان ثانى اثنين فى الإيمان ، وثانى اثنين فى الهجرة ، وثانى اثنين فى إمارة الحج (أول أمير للحج هو سيدنا عتاب بن أسيد ولاّه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعد الفتح ، كما ولاّه إمارة الحج) ، وثانى اثنين فى الخلافة ، وثانى اثنين فى الروضة الشريفة حيث مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحق :

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثًا ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم ، وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره معهم ، يسمع ما يأتمرون به ، وما يقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر .

وكان عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، يرعى فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر ، فاحتلبا وذبحا ؛ فإذا عبد الله بن أبى بكر غدا من عندهما إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه

---

(١) وهم الذين امتنعوا عن أداء الزكاة ، فحاربهم عليها الصديق رضى الله عنه ، وكان الصحابة يتخوفون من حربهم وهم كثرة ، ولكنه رضى الله عنه حاربهم ليأخذ منهم حق الله ، وقال قولته المشهورة : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه للنبى صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، أينقص الدين وأنا حى؟» . وتغلب رضى الله عنه على أهل الردة ، وحفظ الله الإسلام على يديه فجزاه الله عنا كل خير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ببعيريهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاماً (حبلا تربط به) فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة ، فإذا ليس لها عصام ، فتحل نطاقها فتجعله عصاماً ثم علقتها به ، فكان يقال لأسماء بنت أبى بكر : ذات النطاق لذلك ؛ قال ابن هشام وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : ذات النطاقين ، وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها اثنين فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر .

فلما قرب أبو بكر رضى الله عنه الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم له أفضلهما ثم قال : اركب فداك أبى وأمى .

فقال رسول الله صلى الله ، عليه وسلم : إنى لا أركب بعيراً ليس لى ، قال : فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، قال : لا ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا ، قال : قد أخذتها به ، قال : هى لك يا رسول الله ، فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصديق رضى الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما فى الطريق .

أقول : أرأيت كيف علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أكثر ما علمنا ، أن نجاهد فى الله بأموالنا ، كما نجاهد فيه بأنفسنا ، فقد أبى أن يقبل الناقة هدية من صاحبه ، مع وثوقه فى صدقه وإخلاصه فى تقديمها هدية ، ولكنه أبى إلا أن تكون بالثمن ليتحمل النفقة فى سبيل الله عز وجل!! . وكيف لايفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وكيف لانتأسى به ، ونجاهد فى سبيل الله بأموالنا وأنفسنا وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ناصحاً لنا فى سورة الصف :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) . وما أروع آيات الله البيّنات لمن تدبرها وعقلها .

قال ابن إسحق :

حدثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه، أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر . فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يابنت أبي بكر ؟ قالت : قلت : لا أدرى والله أين أبي ؟ قالت : فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشًا خبيثًا ، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى .

أقول : أرأيت إلى القسوة التى طمست على قلبه بكفره ، فحملته على أن يضرب فتاة صغيرة فى سن الطفولة ، وهو شيخ كبير لايرى فى ذلك عاراً ، مع أن بعض الحيوان يأبى لنفسه أن يعتدى على امرأة ، وأعلم من ذلك الأسد والجمل ، لأن كلا منهما يستضعفها بإلهامه الفطرى ، ويراها أضعف من أن يعتدى عليها . فما أتعسه من إنسان فقد المروءة التى تحلّى بها بعض الحيوان .

قالت أسماء : ثم انصرفوا ، فمكثنا ثلاث ليال، وما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر غناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه ، يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أهل مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتى أم معبد

هما نزلا بالبر ثم تروحا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد

ليَهْنِ بنى كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

ويروى أن حسان بن ثابت لما بلغه شعر الجنى وما هتف به فى مكة قال أبياتًا مطلعها :

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم ... وقد سُرَّ من يسرى إليهم ويغتدى

---

(١) هنيئاً لبنى كعب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قالت : فلما سمعنا ٠قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن وجهه إلى المدينة وكانوا أربعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضى الله عنه وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهما .

معجزة نبوية :

واسم أم معبد المشار إليها فى الأبيات المتقدمة ، عاتكة بنت خالد ، وهى امرأة من بنى كعب من خزاعة ، وقد مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وكانت سيدة برزة[١] جلدة تسقى وتطعم ، فسألوها لحمًا وتمراً يشترونه منها ، وكانوا جياعًا ، فلم يجدوا عندها شيئًا ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة ، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت هى أجهد من ذلك ، قال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟

قالت : بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلبًا فاحلبها ، فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها ، فسمى الله تعالى ، ودعا لها فى شأنها ، فتفاجت[٢] عليه ودرت واجترت ، ودعا بإناء فحلب فيه ثجًا[٣] حتى علاه لبنها ، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب آخرهم ، ثم صب فيه ثانيًا بعد بدء حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها ؛ ثم بايعها على الإسلام ، ثم ارتحلوا عنها ، فما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافًا ، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال : من أين لك هذا يا أم معبد ؟ والشاة عازب حيال[٤] ، ولا حلوب فى البيت ؟

قالت : لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك ، من حاله كذا وكذا ، ووصفته له فى كلام طويل كله حق ، قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى ذكر

---

(١) المرأة البرزة هى العفيفة التى تبرز للرجال وتتحدث معهم ، وهى المرأة التى أسنت وخرجت عن حد المحجوبات .

(٢) أفسحت له ليتمكن من الضرع .

(٣) سال بكثرة .

(٤) لم تحمل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لنا من أمره ما ذكر بمكة ، لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

فطنة أسماء :

قالت أسماء رضى الله عنها : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، وكان خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه ، قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : قلت : كلا يأبت ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، قالت فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة (طاقة) فى البيت الذى كان أبى يضع ما له فيها ، ثم وضعت عليها ثوبًا ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم ؛ ولا والله ما ترك لنا شيئًا ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

أقول وما أعجب أثر الهدى فى سلوك أهل الإيمان حتى الأطفال منهم ، وما أعظم سيدنا أبا بكر فى إيثار الله على أهله وماله ، وما أسعده بصحبة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة !

جزع بنى هاشم :

وقد جزعت بنو هاشم لخروجه صلى الله عليه وسلم من بينهم ، حتى لقد قالت عمته عاتكة بنت عبد المطلب فى أسفها على خروجه ، مع أنها كانت لاتزال على دين قومها :

أعينى جودى بالدموع السواجم ... على المرتضى كالبدر من آل هاشم
على المرتضى للبر والعدل والتقى ... وللدين والدنيا بهيج المعالم
على الصادق الميمون ذى الحلم والنُّهَى ... وللفضل والداعى لخير التراحم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مائة ناقة لمن يرّد الرسول على قريش :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم ؛ قال سراقة بن مالك : فبينا[1] أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا علىّ آنفًا ، إنى لأراهم محمداً وأصحابه .

قال سراقة : فأومأت إليه بعينى : أن اسكت ، ثم مكثت قليلا ، ثم قمت فدخلت بيتى ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لى من دبر حجرتى ، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى (درعى) ، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره »[2]

معجزة أخرى نبوية :

ثم مضى سراقة يقول :

فأبيت إلاّ أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى فسقطت عنه فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، فأبيت إلاّ أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان الإعصار .

أرأيت أيها القارئ العزيز كيف عصم الله رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يستطع سراقة أن يمسه بسوء ، اللهم احمنا بحماك ، واهدنا بهداك .

قال سراقة : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر ، قال : فناديت القوم ، فقلت : أنا سراقة أنظروني أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر :

---

(١) بينما .

(٢) أى السهم المكتوب فيه هذه الكلمة ؛ أى لن تتمكن من الإضرار به .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قل له : وما تبتغى منا ، فقال ذلك أبو بكر ، قال سراقة قلت : تكتبون لى كتابًا يكون آية بينى وبينك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب له يا أبا بكر ،

قال سراقة : فكتب لى كتابًا فى عظم أو رقعة ثم ألقاه إلىّ ، فأخذته فجعلته فى كنانتى ثم رجعت ، فسكتُّ فلم أذكر شيئًا مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرغ من حنين والطائف ، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة (ماء بين الطائف ومكة) قال : فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار .

إسلام سراقة رضى الله عنه :

قال سراقة : فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون : إليك إليك ، ماذا تريد ؟ فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه (ركابه) كأنها جُمَّارة[1] ، فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لى ، أنا سراقة ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبر ، ادنه ، قال : فدنوت منه فأسلمت ، ثم تذكرت شيئًا أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فما أذكره ، إلا أنى قلت : يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضى وقد ملأتها لإبلى[2] ، هلى لى من أجر فى أن أسقيها ؟ قال : نعم فى كل ذات كبد حرَّى[3] أجر ، قال : ثم رجعت إلى قومى ، فسقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتى (يريد زكاة ماله) .

وقد قالوا إن أبا جهل لام سراقة حين رجع مكة بلاشىء ، فقال سراقة ردًّا عليه :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

---

(١) شديدة البياض كجمارة النخل .
(٢) إبل الغير تأتى لتشرب من الحوض الذى يسقى منه إبله .
(٣) عطشى .

عليك بكبف القوم عنه فإننى أرى أمره يوما ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم بأن جميع الناس طرًّا يسالمه

الوصول إلى قباء :

قال ابن إسحق :

وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء ، ونزل على بنى عمرو ابن عوف لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحا وكادت الشمس تعتدل .

ويحدث ابن إسحق بسنده عن بعض الصحابة قالوا :

فلما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وتوكّفنا (انتظرنا) قدومه ، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرّتنا[1] ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك فى أيام حارة ، حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وإنا ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته :

يا بنى قَيْلَة (هم الأنصار ، وقيلة جدهم) : هذا جدكم (حظكم السعيد) قد جاء ، قال : فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فازدحم الناس عليه وما يعرفونه من أبى بكر حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو بكر فأظلّه بردائه ، فعرفناه عند ذلك .

أقول : فلله ما أوفاك أيها الصدّيق الأكبر والعلم الأشهر ، فقد علّمت المؤمنين

---

(١) الحرة : هى أرض ذات حجارة سود .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كيف يكون حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أسعد من قلدك وأخذ عنك ذلك الحب الخالص .

يوم الاثنين :

وكان وصوله إلى قُباء فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول حين اشتد الضحا ، وما أعجب يوم الاثنين فى تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ولد يوم الاثنين ، ونُبئ يوم الاثنين وخرج من مكة يوم الاثنين ، ووصل إلى ضواحى المدينة (قباء) يوم الاثنين ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين ، فما أبرك يوم الاثنين . وقد كنت فى طفولتى آنس بيوم الاثنين ولا أدرى سر ذلك الأنس ، فلما كبرت ووقفت على السيرة النبوية العطرة انكشف لى ما كان خافياً علىّ ، ولله فى خلقه شؤون ، وما أراده يكون .

فى قباء :

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء فى بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجد قباء .

أقول : وهو أول مسجد بنى فى الإسلام ، وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من وضع حجراً فى قبلته ، ثم جاء أبو بكر فوضع حجراً إلى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ الناس فى البنيان ..

قال ابن إسحق :

ثم خرج صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم يوم الجمعة ، فأدركَتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى [1] ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة .

---

(١) سمى هذا المكان مسجداً باعتبار أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فيه وسجد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأنصار يرحبون :

وكانت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بإذن ربه كما علمت ، وقد وصل إليها فى رعاية الله سالمًا غانمًا ، فتلقاه أهلها بالفرح الغامر ، وغنّت بنات النجّار بين يديه الأغنية المباركة :

طلع البـدر علينـا من ثَنِيَّات الوداع
وجب الشكر علينـا ما دعا للـه داع
أيهـا المبعوث فينـا جئت بالأمـر المطاع

وكانت بيوتات الأنصار يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة ، ويمسكون بزمام الناقة التى يركبها صلى الله عليه وسلم ، فيقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، حتى إذا أتت إلى دار بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ مِرْبد (موضع يجفف فيه التمر) لغلامين يتيمين من بنى النجار .

فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رَحْلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل عن المربد لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان لى وسأرضيهما فيه فاتَّخِذْه مسجداً .

المسجد النبوى :

قال : فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين فى العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعـدنا والنبى يعمـل لـذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون :

لاَعَيْشَ إلاّ عيْشَ الآخره اللهمّ ارحم الأنصار والمهاجره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ابن إسحق : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار .

معجزة نبوية :

قال ابن إسحق : فدخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللَّبِن ، فقال : يا رسول الله قتلونى ، يحملون علىّ ما لايحملون ، قالت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض وفرته (شعر رأسه) بيده ، وكان رجلا جعداً[1] وهو يقول : ويح ابن سميَّة ! ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية .

أقول : وقد قتلته فئة معاوية فى صفين ، فقال إمامنا علىّ كرم الله وجهه : الحمد لله الذى أرانى أنى على الحق . فانظر كيف تحققت المعجزة بعد أربعين سنة ، وصلوات الله على صاحب المعجزات .

قال ابن إسحق :

وارتجز علىّ بن أبى طالب يومئذ :

لا يستوى من يَعْمُرُ المساجـــدا يدأب فيها قائمًا وقـــاعـــدا
ومن يرى عن الغبار حائدا[2]

أدب الأنصار :

قال ابن إسحق يحدث بسنده عن أبى أيوب الأنصارى قال :

لما نزل عَلَىَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى نزل فى السفل (الدور الأول) وأنا وأم أيوب فى العلو ، فقلت له :

يانبى الله ، بأبى أنت وأمى — إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون

---

(١) الشعر الجعد هو الملتوى ، وهو شعر عمار رضى الله عنه .

(٢) يبعد التراب عن نفسه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحتى ، فأظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن فنكون فى السفل .

فقال : يا أبا أيوب : أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت .

أقول : أرأيت كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رأفته بمن يأتيه من المؤمنين ، وكيف كان يشق عليه تعبهم ، ولم لا وقد حلاّه ربه بوصفه الخالد : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

واستمع إلى بقية ما حدّث به سيدنا أبو أيوب ، لترى ما كان من أدبه مع النبى صلى الله عليه وسلم :

قال أبو أيوب رضى الله عنه : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفل المسكن وكنا فى علوه ، فلقد انكسر حُب (إناء كبير) لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء ، تخوفًا أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء فيؤذيه .

أول خطبة خطبها رسول الله :

قال ابن إسحق :

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ، واستجمع له إسلام الأنصار ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها وكانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى :

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمُنّ والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه من دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينًا وشمالا فلا يرى شيئًا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

قال ابن إسحق :

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادَعَ فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم ؛ وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال — فيما بلغنا عنه ، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل — تآخوا فى الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب فقال : هذا أخى .

أقول : وليلحظ القارئ الكريم الشرف الكبير الذى خُصّ به إمامنا على ابن أبى طالب بهذا الإخاء الذى شرفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حكمة المؤاخاة :

قال السهيلى : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشير ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، فلما عزّ الإسلام ، واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة ، أنزل الله سبحانه فى سورة الأنفال : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ) ؛ يعنى فى الميراث ، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة ، فقال تعالى فى سورة الحجرات : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) ، يعنى فى التوادد وشمول الدعوة .

الأذان للصلاة واستحكام الإسلام :

قال ابن إسحق :

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، واجتمع إليه أصحابه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوّءوا الدار والإيمان .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، حتى رأى عبد الله بن زيد صيغة الأذان فى رؤيا ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنه طاف بى هذه الليلة طائف : مَرَّ بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا فى يده ، فقلت له يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت ندعو به للصلاة ، قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وماهو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلاّ الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حىّ على الصلاة ، حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح ، حىّ على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

قال : فلما أُخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتًا منك ، قال : فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه يقول : يا نبىّ الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلله الحمد على ذلك .

وفى رواية أخرى : ائتمر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين للناقوس ، إذ رأى عمر بن الخطاب فى المنام قائلا يقول له : لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ، فذهب عمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليخبره بالذى رأى ، وقد جاء النبى صلى الله عليه وسلم الوحى بذلك ، فما راع عمر إلاّ بلال يؤذن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره بذلك : قد سبقك بذلك الوحى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غزوة بدر الكبرى :

ألف الله بين الأوْس والخزرج بأخوة الإسلام ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، فصار المسلمون يداً واحدة على أعدائهم . وقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بعون الله وقوته من نصر إلى نصر .

وكانت بداية النصر المبين غزوة بدر الكبرى ، وهى التى ظهرت وتجسَّمت فيها شخصية المسلمين ولو كره الكافرون . فى هذه الغزوة كتب الله للمسلمين أول انتصار حربى وأروعه على كفار مكة الذين كادوا السنوات الطوال للإسلام وأهله واضْطَرُّوا المسلمين أن يخرجوا من ديارهم لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله .

وقام القتال بين المسلمين وأعدائهم فى بدر بغير ميعاد سابق ، ولا باستعداد مدبر ، وكأن الله تعالى أراد أن يكافئ المسلمين على التآخى الصادق ، فآتاهم النصر العزيز المفاجئ ، ليكون بداية سعيدة تقودهم من نصر إلى نصر فى الغزوات اللاحقة .

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عير عظيمة لقريش ، تحمل أموالهم وتجارتهم ، فقال لأصحابه : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ، فخرج بعض الصحابة وتخلف البعض حيث لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربًا .

ولما علم أبو سفيان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استنفر أصحابه ليأخذوا العير ، اتصل بأهل مكة واستنفرهم ليدافعوا عن العير ، وقد أفلتت العير ، ولم يتمكن المسلمون من وضع يدهم عليها ، وجاءت قوات قريش ، وعلمت بأن العير أفلتت ، ورأى بعضهم أن يرجعوا إلى مكة بغير قتال ، ولكن أبا جهل أبى وقال : والله لا نرجع حتى نرد بدراً (وكانت بدر من مواسم العرب) فنقيم عندها ، ثلاثًا ، وننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان (الجوارى) ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فأمضوا رأيه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج من المدينة لبضع ليال مضت من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وأتاه الخبر بأن قريشًا خرجوا من مكة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليمنعوا عيرهم ، فاستشار أصحابه صلى الله عليه وسلم ، فأحسنوا القول وأظهروا الطاعة التامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يسائل القارئ نفسه : ولماذا يستشير الرسول أصحابَه ، وهو المطاع أمره بلا تعقيب ؟ والجواب أن الله تعالى قال له : (وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ) . وقال فى المؤمنين : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) ،فسنّ لنا صلى الله عليه وسلم الشورى فى الأُمور العامة ، وسبقنا بذلك كل الأُمم ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأُخرى فإن بيعة العقبة قامت على أن يحمى الأنصار الإسلام فى المدينة ، وكانت بدر خارج المدينة وبينها وبين المدينة نحو ١٥٠ كيلومترًا .

ولما رأى رسول الله قوات قريش قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحْنِهِمْ (أهلكهم) الغداة .

وقد وعد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمكنه من أعدائه ، إما بالاستيلاء على عير أبى سفيان أو بالنصر على جيش قريش . وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الأنفال : (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكون لَكمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) .

وقد أراد الله أن يقع القتال بعد أن أفلتت العير فكانت الحرب ذات الشوكة ، وقد كانت معنويات الصحابة قوية على الرغم من أنهم حين خرجوا من المدينة لم يكن فى حسابهم قيام الحرب مع أعدائهم ، ولترى صورة مشرقة لشجاعة الصحابة ومعنوياتهم القوية فى لقاء أعدائهم الكافرين اقرأ ما قاله عندما شاورهم الرسول فى القتال كل من سيدنا المقداد بن عمرو وسيدنا سعد بن معاذ :

فقد قال الأول : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ،فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : (اِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هٰهنَا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قَاعِدُونَ) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إننا معكما مقاتلون .

وقال الثانى : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله .

فسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

(وسعد بن معاذ — رضى الله عنه — هو رئيس الأوس من الأنصار ، وهو الذى أشار ببناء عريش يستظل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال فى إبداء رأيه هذا : يا رسول الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله ، وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام — يا نبى الله — ما نحن بأشد حبّاً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك . فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا له بخير ثم بُنِىَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش فكان فيه) .

وعلى الرغم من أن عدد مقاتلى مكة كان ثلاثة أمثال عدد المقاتلين من الصحابة فإن الله تعالى قد نصر الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة ، وقد شاء الله أن يقتل فى تلك الغزوة صناديد قريش ورءوس الكفر ، وعلى رأسهم أبو جهل أعدى أعداء الإسلام .

وقد رأيت صوراً مشرقة من كلام أسلافك الغر الميامين قبل المعركة ، فانظر إلى صورة مشرقة من أفعالهم فى المعركة ، فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحرِّض المؤمنين على القتال ويتوسل : والذى نفس محمد بيده ، لايقاتلهم اليوم رجل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . فقال سيدنا عُمَيْر بن الحمام من بنى سلمة ، وفى يده تمرات يأكلهن: بَخٍ بَخٍ (كلمة إعجاب) أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل ، رضى الله عنه .

وقد خفق رسول الله خفقة بعد أن دعا ربه بالنصر ، ثم انتبه من خفقته ، وقال لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه ، وكان معه فى العريش الذى يشرف منه على المعركة : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (الغبار) .

وكان النصر للمؤمنين ، وقتل من الكافرين سبعون ، وأُسِرَ سبعون ، فى حين لم يزد عدد شهداء المسلمين على أربعة عشر رجلا . وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

الملائكة فى غزوة بدر الكبرى :

ويحكى القرآن الكريم ما كان من عون الله للمسلمين فى قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقولُ لِلْمُؤمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكم مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ولِتَطمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ ؛ فانظر كيف تمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمدّهم الله بثلاثة آلاف ، فأمدهم بخمسة آلاف ، وكيف قاتلت الملائكة فى صفوف المؤمنين ، ولم يكن لهم عهد بقتالهم ، فعلَّمهم الله بقوله الكريم فى سورة الأنفال : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِين كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)، فعلَّمهم ضرب الرقاب وضرب الأطراف التى يصيبون بها المقاتل ؛ ولله جنود السموات والأرض ، وقد قال ابن عباس : لم تقاتل الملائكة فى يوم سوى يوم بدر ، وكانوا فيما سواه عدداً ومدداً لا يضربون .

أقول : ولك أن تعجب بأمر تلك الهجرة الميمونة ، التى جعل الله بها من الغربة وطناً ، ومن الضعف قوة ، ومن الخوف أمناً ، ومن البعيد عوناً على القريب ، ولله يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه .

الأنصار يتحدثون بنعمة الله :

قال ابن إسحق :

« وقال أبو قيس صرمة بن أبى أنس (من بنى النجّار) يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام ، وما خصهم الله به من نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة ... يُذَكِّرُ لو يلقى صديقاً مواتيا
ويعرض فى أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى ... وكان له عوناً من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... قريباً ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حل ما لنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
فوالله ما يدرى الفتى كيف يتقى ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عداوة اليهود والمنافقين :

قال ابن إسحق :

ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة بغياً وحسداً وضغناً ، واستتر بالإسلام بعض العرب ، واتخذوه وقاية من القتل ، ونافقوا فى السر وكان هواهم مع اليهود .

ولما أصاب الله عز وجل قريشاً يوم بدر جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود فى سوق بنى قينقاع حين قدم المدينة ، (أى بعد معركة بدر) فقال : يا معشر اليهود : أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً ، فقالوا له : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ) .

إسلام عبد الله بن سلام :

قال ابن إسحق :

وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثنى بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم ، وكان حبراً عالماً ، قال :

لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته ، واسمه ، وزمانه الذى كنا نتوكف (نترقب) له ، فكنت مسرًّا لذلك ، صامتاً عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابنة الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كَبَّرتُ ، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيّبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت .

فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به ، فقالت : أى ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نُخْبَرُ أنه بعث مع نفس الساعة (أى رسالته علامة على قرب القيامة) ؟ ففلت لها : نعم ، فقالت فذاك إذن ، قال : ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا .

وكتمت إسلامى من يهود ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : يا رسول الله : إن يهود قوم بهت (على الباطل) ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى .

فأدخلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وساءلوه ، ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا ، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأومن به وأصدقه وأعرفه ، فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بى فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ، فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث ، فحسن إسلامها .

قال ابن إسحق :

وفى أحبار اليهود الذين لم يسلموا ، وفى المنافقين من الأوس والخزرج ، نزل صدر سورة البقرة إلى المائة منها ، وقال الله للفريقين : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) . أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه ، ثم قال تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) .

قال ابن إسحق :

حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه : قال : قالوا : فينا والله وفيهم نزلت هذه القصة : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) . قال : كنا قد علوناهم ظهرًا فى الجاهلية ، ونحن أهل شرك ، وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون لنا : إن نبيًّا يبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من قريش فاتبعناه كفروا به .

كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر

قال ابن إسحق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صاحب موسى وأخيه ، والمصدق بما جاء به موسى : ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة ، وإنكم لتجدون ذلك فى كتابكم :

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً) ، وإنى أنشدكم بالله ، وأنشدكم بما أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباط المن والسلوى ، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله ، إلا أخبرتمونى : هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه .

قال ابن إسحق:

وحدثت عن سعيد بن جبير أنه قال : أتى رهط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ قال فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم غضباً لربه ، قال فجاءه جبريل عليه السلام فسكّنه ، فقال : خفّض عليك يا محمد ، وجاءهم من الله بجواب ما سألوه عنه (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ[1] * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

فلما تلاها عليهم ، قالوا : فصف لنا يا محمد كيف خَلقه؟ كيف ذراعه ؟ كيف عضده ؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول وساورهم ، فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال له مثل ما قال له أول مرة وجاءه من الله بجواب ما سألوه ، يقول الله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

---

(١) الصمد أى الذى يلجأ الناس إليه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ابن إسحق :

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغَّبهم فيه ، وحذَّرهم عذاب الله ونقمته ، فقال له رَافع بن خارجة ومالك بن عوف : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم وخيرًا منا ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهما : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ!) .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض اليهود وقالوا له : يا محمد ، أما تعلم مع الله إلهًا غيره ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله لا إله إلا هو ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو ، فأنزل الله فيهم وفى قولهم فى سورة الأنعام : (قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هٰذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخرَى قُلْ لَاأَشْهَدُ قلْ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ) .

وأتى رسول الله جماعة من اليهود فقالوا : أحق يا محمد أن هذا الذى جئت به الحق من عند الله؟ فإنا لانراه متسقاً كما تتسق التوراة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به، فقالوا عند ذلك: يا محمد أما يعلمك هذا إنس ولا جن؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وأنى لرسول الله : تجدون ذلك مكتوباً عندكم فى التوراة ، فقالوا : يا محمد فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاءُ ويقدر منه على ما أراد ، فأنزل علينا كتاباً من السماءِ نقرؤه ونعرفه وإلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جئناك بمثل ما تأتى به ، فأنزل الله تعالى فيهم وفيما قالوا (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) .

بين الرسول والمسيحيين

قال ابن إسحق :

وقد ذكر الله أمر عيسى ردًّا على من اختلفوا فى أمره ثم قال تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) فإن قالوا خلق عيسى من غير ذكر ، فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة ، فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب من هذا .

ثم قال تعالى : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) ، أى بعد ما قصصت عليك من خبره ، وكيف كان أمره ، (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) .

وقد دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الملاعنة فقالوا : دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، وخلوا « بالعاقب » وكان ذا رأى فيهم فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟

فقال : والله يا معشر النصارى ، لقد عرفتم أن محمداً نبىّ مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعَنَ قوم نبيًّا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا ألّا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا .

أقول : وللقارئ أن يعجب من هؤلاء الذين رأوا الحق بأنفسهم وجحدوه ولم يتّبعوه ، فحرموا أنفسهم من سعادة لا شقاء بعدها ، وسبحان من بيده ملكوت كل شيء (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

الغزوات والبعوث والسرايا :

وفى أثناء إقامته بالمدينة جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه من المهاجرين والأنصار أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين ، عربهم ويهودهم ، وكان جهاده لأعداء الدين جهاداً كبيراً ، قابل فيه المسلمون الشدائد بعزم مؤكد ، هو عزم أهل اليقين الذين تهون عليهم كل تضحية فى سبيل الدين ، ولا تعجب أن يكون ذلك شأنهم ، وقائدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا يتقون به إذا حمى الوطيس ، كما حدّث إمامنا على بن أبى طالب ، فقد قال كرّم الله وجهه : « كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو » ، وكانت للمسلمين بعون الله الغلبة الفائقة على أعدائهم ، ورضى الله عن إمامنا البوصيرى إذ يقول فى بردته المباركة بروحه الملهمة :

راعت قلوب العدا أنباء بعثته ... كنبأة[1] أجفلت غفلا[2] من الغنم
مازال يلقاهمو فى كل معترك ... حتى حكوا بالقنا لحمًا على وضم[3]
يجر بحر خميس[4] فوق سابحة ... يرمى بموج من الأبطال ملتطم

---

(١) النبأة : أى الصرخة الشديدة .
(٢) الغفل : أى البليد .
(٣) الوضم : ما يضع عليه الجزار اللحم .
(٤) الخميس : الجيش الكبير .

من كل منتدب لله محتسب ... يسطو بمستأصل للكفر مصطلم[١]
حتى غدت ملة الإسلام وهى بهم ... من بعد غربتها موصولة الرحم
مكفولة أبداً منهم بخير أب ... وخير بعل فلم تيتم ولم تئم
هم الجبال فسل عنهم مصادمهم ... ماذا رأى منهمو فى كل مصطدم
وسل حنينًا وسل بدراً وسل أحداً ... فصول حتف[٢] لهم أدهى من الوخم[٣]
شاكى السلاح لهم سيما تميزهم ... والورد يمتاز بالسيما من السلم[٤]
كأنهم فى ظهور الخيل نبتُ ربًا ... من شدة الحزم لا من شدّة الحزم
ومن تكن برسول الله نصرته ... إن تلقه الأسد فى آجامها تجم
أحل أمته فى حرز ملته ... كالليث حل مع الأشبال فى أجم

قال ابن إسحق :

وكان جميع ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعًا وعشرين غزوة هى : غزوة ودان أو غزوة الأبواء ، ثم غزوة بواط ، ثم غزوة العشيرة ، ثم غزوة بدر الأولى ، ثم غزوة بدر الكبرى التى قتل فيها صناديد قريش ، ثم غزوة بنى سليم ، ثم غزوة السويق ، ثم غزوة غطفان أو ذى أمر ، ثم غزوة بحران ، ثم غزوة بنى قينقاع ، ثم غزوة أحد ، ثم غزوة حمراء الأسد ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة ذات الرقاع ، ثم غزوة بدر الآخرة ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بنى قريظة ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة ذى قرد ، ثم غزوة الفتح ، ثم غزوة حنين ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تبوك .

وقد قاتل صلى الله عليه وسلم منها فى تسع غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف .

وكانت بعوثه وسراياه ثمانية وثلاثين من بين بعث وسرية .

---

(١) مصطلم : أى مهلك .
(٢) الحتف : هو الموت .
(٣) الوخم : هو الوباء .
(٤) السلم : شجر له شوك يشبه شجر الورد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرض الهجرة :

خرج المسلمون مهاجرين بعد ثلاثة عشر عاماً من بعثته صلى الله عليه وسلم ، ثم عادوا إلى مكة فى السنة الثامنة من الهجرة فاتحين ، وكانت الهجرة فرضاً على المسلمين قبل فتح مكة ، أما بعد الفتح فلم تعد هجرة مفروضة ، لكن جهاد ونيّة ، ولهذا قال تعالى فى سورة النساء آمرًا بالهجرة وحاضًا عليها ، ومنذرًا المتخلفين عنها قبل الفتح : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا) .

أصحاب الأعذار :

وقد عذر الله المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لم تتهيأ لهم أسباب التخلص والزاد والراحلة حتى يهاجروا للحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وحين نزل قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ . . . . .) قال رجل من المسلمين وهو مريض ، وقيل اسمه ضمرة بن جندب ، والله مالى من عذر ، إنى لدليل فى الطريق ، وإنى لموسر ، فاحملونى فحملوه فأدركه الموت فى الطريق ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو بلغ إلينا لتم أجره ، وقد مات فى التنعيم[1]. وجاء بنوه إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبروه بالقصة ، فنزلت الآية الكريمة : (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) .

---

(١) مكان خارج مكة ببضعة كيلومترات ، ويحرم منه للعمرة ويقال له مسجد عائشة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال الإمام البيضاوى فى تفسيره : إن ذلك المهاجر التّقىّ أشرف على الموت ، فصفق بيمينه على شماله فقال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك صلى الله عليه وسلم ؛ وتفيد الآية أن أجره ثبت عند الله ، والمراغم هو المتحول ، وهو من الرغام أى التراب ، وقيل يجد طريقًا يراغم بسلوكه قومه ، ويفارقهم على رغم أنوفهم ، وهو أيضًا من الرغام .

الفرار بالدين :

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى : قال ابن القاسم : سمعت ما لكًا يقول المراغم الذاهب فى الأرض ، وقال الإمام مالك أيضًا : هذه الآية دالة على أنه ليس لأحد المقام بأرض يسب فيها السلف ويعمل فيها بغير الحق ، والهجرة التى كانت فرضًا فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم وانقطعت بفتح مكة هى القصد إليه صلى الله عليه وسلم ، أما الهجرة وهى الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام فهى باقية مفروضة إلى يوم القيامة .

نصيحة :

أقول : فانظر كم تحمّل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكم تحمّل أصحابه ، وكم قاسوا الشدائد واقتحموا الصعاب فى توطيد دعوة الحق ، فلا تستهن أيها المسلم بدعوة الإسلام التى أتتك بيضاء كاللبن من بين فرث ودم ، وشد يديك على دينك ، واعتز به ، واحمد الله على هداك ، وانو الجهاد بنفسك ومالك إن دعيت للجهاد فى سبيل الله ، وجاهد نفسك التى بين جنبيك وألزمها آداب الإسلام ظاهرها وخافيها ، فالآداب الظاهرة حفظ الجوارح ، والآداب الخافية حفظ القلوب والأرواح ، ولا خير فى ظاهر لا يتفق معه الباطن ، وقد تعبّد الله الجوارح بالأفعال ، وتعبّد القلوب بالنّيات ، واجتنب الفواحش الباطنة ، والأخلاق الشيطانية السيئة من الرياء والنفاق والحقد والحسد ، والتبرم بالمقدور ، والكبرياء والعجب والخيلاء وما إلى ذلك .

ولتعلم أيها الأخ المؤمن أن أسلافك الشجعان الأمناء رووا لى ولك ولكافة المسلمين ، أنه كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحياء ، والسخاء ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتوكل ، والرضا ، والذكر ، والشكر ، والحلم ، والصبر ، والعفو ، والصفح ، والرأفة ، والرحمة ، والمداراة ، والنصيحة ، والسكينة ، والوقار ، والتواضع ، والافتقار ، والجود ، والسماحة ، والخضوع ، والقوة ، والشجاعة ، والرفق ، والإخلاص ، والصدق ، والزهد ، والقناعة ، والخشوع ، والخشية ، والتعظيم ، والهيبة ، والدعاء والبكاء ، والخوف ، والرجاء ، واللياذة ، واللجأ ، والتهجد ، والعبادة ، والجهاد ، والمجاهدة — ولا تستكثر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد شهد الله تعالى له بالخلق العظيم فى قوله الكريم : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ، فتخلق بأخلاقه ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

وقد سئل الإمام سهل التسترى رضى الله عنه عن الكرامات ، فقال : وما الكرامات؟ إن الكرامات شىء ينقضى لوقته ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك خلقاً محموداً . كما قال الإمام أبو على الجرجانى رضى الله عنه : كن طالباً الاستقامة لا طالبا الكرامة ، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة . وقال الإمام الجنيد رضى الله عنه لرجل رآه فى رؤيا بعد موته وقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : راحت تلك الإشارات ، وطاحت تلك العبارات ، وما نفعنا إلا ركيعات ركعناها عند السحر . وأخيراً لاتنس أن الله تعالى يقول لنا :

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا) . والتقوى كما عرفها إمامنا علىّ كرّم الله وجهه هى الخوف من الجليل ، والعمل بما فى التنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

أقول : وإذا كان الإسلام قد انتشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غير الجزيرة العربية التى شعّ منها نور الإسلام فيها على يد رسول الله ، فمحا ظلمة الكفر ، فقد كان ذلك بفضل أصحابه الكرام ، الذين نقلوا عنه صلى الله عليه وسلم الجهاد الدائم فى سبيل الله ، مهما عظمت التضحيات لنشر دينه الذى أرسله الله به لكافة البشر ، فلمن تبذل مجهودك إن لم تبذله لمعبودك ، ألم يقل الله لى ولك وللمسلمين كافة (إِنَّ اللهَ لَايَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً) ، فادع إلى سبيل ربك بكل ما تملك من وسائل، وادع أول ما تدعو نفسك التى بين جنبيك وهى الأقرب إليك، لتؤدى حق الإسلام عليك ، ولتكن عنايتك بنشر الإسلام بعد ذلك بين أهله من المسلمين ، فقد جانبوا أكثر آدابه الحقة ، وحادوا فيها عن الصراط المستقيم ، ولولا أن الإيمان بالله ورسوله لا يزال يُحلِّيهم ليئسنا من إصلاحهم، فقد تعادوا أفراداً وشعوباً وقبائل وأمماً وكانوا متحابين ، وتحاسدوا وكانوا بما آتى الله بعضهم فرحين ، وأهملوا العبادات بعد أن كانوا بها يزدهرون ، وولعوا بتقليد غيرهم بعد أن كان الناس بهم يقتدون ، وما أغناهم عن التقليد ، وما أحوج غيرهم إلى عقيدة الإسلام وآدابه التى أغنانا الله بها من فضله، فوا إسلاماه !! ، وإذا كنا فى الماضى نعز و ما حل بنا من فساد الأحوال للاستعمار، فقد نفضنا عاره عنا وصرنا أحراراً فى بلادنا الإسلامية وتهيأت لنا فرصة لإصلاح ما فسد .

فإن نحن أبرزنا أثر الإسلام فى سلوكنا كأُمة ، كانت تلك أعظم رعاية عملية للإسلام فاستغنينا بها عن كثير الكلام ، إن الأُمم الأعجمية رحبت بالإسلام حين رأوا من أسلافنا الصالحين عدلا شاملا فى الأحكام ، تنفيذاً لأوامر الله، فقد قال تعالى : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْى يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ، فإن نحن انتهينا عن الفحشاء والمنكر والبغى عادت لنا سيرتنا الأُولى ، وكنا كأسلافنا صالحين .

نحن وأسلافنا الصالحون :

وإذا ذكرت أسلافك الصالحين أيها القارئ الكريم فاستغفر لهم كما علمك الله بقوله تعالى فى سورة الحشر : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِين سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيم) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد جاءك الإسلام يا أخى سهلا ، لأنهم تحمّلوا عناك فيه الصعب ، فاذكر الفضل لأهله ولا تكن من الجاحدين ، فما أبر الخلف إن ذكروا بالفضل السلف ، وما أحق سلفك بوفائك ، وما أجدرهم بدعائك وهم فى رضوان الله ، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فاصدق معهم فيما أدبك الله به ووجهك إليه ، وكيف تبخل عليهم بدعائك وقد جادوا من أجلك بأرواحهم ، وخلفوا لك السعادة فى إسلامك ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب السادس

الإسلام فى الحرب والسلم

دعوة الإسلام سلمية :

كانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول أمرها سلمية ، وظل يسالم أعداءه ، ويصبر على ما يلقى هو وأصحابه من أذاهم السنوات الطوال ، ذلك الأذى الذى تفنن فيه الأعداء من ضرب وشتم ومقاطعة وإخراج وإحصار ، كل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم صابرٌ محتسب ، يعفو ويصفح الصفح الجميل بأمر ربه ، ولكنّ أعداءه لكفرهم وخستهم لم يزدهم صفحه إلا عُتُوًّا وغروراً ، وهى شيمة النفوس الخبيثة التى لا تزداد بحسن المعاملة إلا تمرداً ونكرانًا .

وقد فكر بعض المؤمنين أن يردُّوا على العدوان بقتل من يستطيعون قتله من الكفار بالاحتيال والغدر ، ولكن الله تعالى نهاهم عن ذلك بقوله تعالى فى سورة الحج : ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ، وفى الآية نهى صريح عن الخيانة والغدر .

الإذن للمسلمين بالقتال :

ثم أباح الله للمؤمنين أن يقاتلوا أعداءهم وجهًا لوجه ، كما مر عليك ، ووعدهم النصر على أعدائهم ، فقال تعالى فى سورة الحج بعد الآية السابقة : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) .

وجاء الإذن بالقتال كما علمت بعد بَيْعة العقبة التى بايع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصارَ على أن يأتى المدينة ويحموه كما يحمون أنفسهم وأهليهم . وكانت أول وقعة بين المسلمين وأعدائهم غزوة « بدر الكبرى » فى السنة الثانية من هجرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وتم له فيها النصر المبين ، مع أن عدد أصحابه كان أقل من ثلث عدد أعدائهم ، ولكنّ الله أيده بجنود من السماء لاتراها العيون وتراها القلوب بنور اليقين ، وذلك النصر المبين هو الذى يَمُنُّ به الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى فى سورة آ ل عمران :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

التحريض على القتال :

وانظر كيف يحرّض الله المسلمين على القتال ، فيبين لهم فضيلة الاستشهاد فى سبيل الله ، وذلك فى قوله تعالى : (ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) .

ثم إنه تعالى يحذرهم من التباطؤ فى التجمع للحرب تحت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول تعالى فى سورة التوبة : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

كما أنه تعالى يُسَوِّغُ لهم القتال المشروع ؛ فيقول كذلك فى سورة التوبة : (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

ويبين سبحانه أنه ولىّ المؤمنين ولا يتخلى عنهم فى قتالهم فيقول فى سورة التوبة بعد ذلك : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

ولما حظر الله على المشركين دخول الحرم بقوله تعالى فى سورة التوبة : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَايَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا) ، ورأى المسلمون أن ذلك سيؤثر فى أرزاقهم التى كانت ترتبط بتجارة المشركين ، طمْأنهم سبحانه بقوله الكريم : (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً[1] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

ومما عوضهم الله به أن فرض الجزية على أعداء المسلمين ، فقال تعالى فى سورة التوبة : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دين الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) .

---

(١) فقراً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشدة على الأعداء :

ثم انظر كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى يعلم أنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، فيأمره بأن يعامل الكفار والمنافقين بالغلظة التى يستحقونها ، فيقول سبحانه فى سورة التوبة : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) ، وهى آية نسخ الله بها ما كان قبل القتال من العفو والصفح والصلح .

ويبين الله تعالى حكمته فى قتال الكفار بأن قتالهم إنما شرعه لدفع باطلهم وصدهم عن سبيل الله ، فهو يدفع بأهل الإيمان ، وهم أهل الحق ، أعداءهم الكافرين وهم أهل الباطل ، وذلك يتضح من قوله تعالى فى سورة القتال : (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) ، والمراد التخيير بين الأسر وبين المَن بالإطلاق وبين أخذ الفداء من الأسرى .

تعاون المؤمنين :

وكما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يغلظ على الكافرين فى جهاده لهم ، أمر كذلك المؤمنين بالغلظة عليهم اقتداء به صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى فى سورة التوبة : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ

الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) ، ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال العرب ، ثم قصد الروم بعد العرب وكان الروم بالشام .

وبيّن سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه يحب تعاون المؤمنين وترابطهم فى قتال أعدائهم ، فقال عز وجل فى سورة الصف : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) ، والبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً .

المتخلفون عن القتال :

وقد وبخ الله الذين تخلّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فقال تعالى فى تقريعهم فى سورة التوبة : (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ[1] فِى سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يخرجوا للحرب جملة ، شبّاناً وشيوخاً ، فقال تعالى : (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ، حتى لقد رُوِىَ عن أنس رضى الله عنه أن أبا طلحة قرأ سورة براءة فأتى على هذه الآية (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا)

---

(١) المخمصة معناها الجوع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقال : أى بَنى ، جهِّزونى ، جهزونى . فقال بنوه : يرحمك الله ، وقد غزوت مع النبى صلى الله عليه وسلم حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، قال : لا ، جهِّزونى ، فغزا فى البحر فمات فى البحر ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها ، ولم يتغير رضى الله عنه . وقال الزهرى : خرج سعيد بن المُسَيِّب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنّكَ عليل ، فقال : استنفر اللهُ الخفيفَ والثقيلَ ، فإن لم يمكنى الحرب كثَّرتُ السوادَ وحفَظْتُ المتاع[1] .

جهاد التفقه فى الدين :

وبينما قال تعالى : (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً . . .) بيّن لهم أن التفقه فى الدين من لوازم المسلمين ، وهو نوع آخر من الجهاد المفروض على فريق منهم لاحتياجهم إليه فى الوقوف على أحكام دين الله تعالى ،فقال عز وجل فى سورة التوبة : (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) ، وفى هذا إيجاب التفقه فى الكتاب والسنة ، وهو فرض كفاية فى التخصص إن أداه البعض سقط عن الآخرين ، فإذا تفقّه البعض كانوا مرجعاً للآخرين ، بدليل قوله تعالى فى سورة النحل : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) . والتفقّه بغير تخصص فرض على كل مسلم ومسلمة ، حيث يلزم الكل أن يعلموا أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج حتى تتم تأدية هذه الفرائض على الوجه الشرعى الصحيح ، ولهذا قال أنس ابن مالك رضى الله عنه : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « طَلَبُ العِلم فريضةٌ على كل مسلم » . وقال الربيع : سمعت الشافعى يقول : طلبُ العلم أَوْجبُ من الصلاة النافلة .

---

(١) يريد أن يقول إنه بخروجه يزيد فى عدد المقاتلين ، وإن لم يستطع قتال الأعداء فإنه يستطيع أن يكون حارساً ويحفظ متاع المقاتلين من الضياع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جزاء المجاهدين :

وإذا أردت أن تستبشر بما أعده الله للمجاهدين فى سبيله فاقرأ قولَه تعالى فى سورة التوبة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وقد جاء فى معناها فى تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنه : « وهو عوض عظيم لا يُدَانيه المُعَوَّض ولا يقاس به ،فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه فى البيع والشراء ، فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال فسمَّى هذا شراء . وروى الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فوق كل بِرٍّ بِرًّا حتى يبذل العبد دَمَه ، فإنْ فعل ذلك فلا بِرَّ فوق ذلك » وقال الشاعر :

الجود بالمال جود فيه مكرمة والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقال الحسن : ومرَّ أعرابى على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ . . . ﴾ ، فقال : كلام مَنْ هذا ؟ قال : كلام الله ، قال : بيع والله مُرْبِحٌ لا نُقيله ولا نَسْتقيله ، فخرج إلى الغزو واستشهد .

الإسلام والقتال :

إذا قرأت فى كتب المبشرين ، أو كتب من يشايعونهم أو يتأثرون بهم ، فلا تنخدع بقولهم إن الإسلام لم ينتشر بمزاياه ، وإنما انتشر بحد السيف ، واستمع إلى ما يقوله فى دفع هذه الفرية العلامة «عباس العقاد » رحمه الله فى كتابه « عبقرية محمد » :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« فالحقيقة الأولى أن مطعن القائلين بأن دين الإسلام دين قتال إنما يصدق — لو صدق — فى بداءة عهد الإسلام يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين ، ولولاهم لما كان له جند ولاحمل فى سبيله سلاح .

« لكن الواقع أن الإسلام فى بداية عهده كان هو المعتدَى عليه ولم يكن من قِبَلِه اعتداء على أحد ، وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية ، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولايزيدون على ذلك ، (وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

« وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة ، فلم يكن لهم قط عدوان ولا إكراه ،

« وحروب النبى عليه السلام — كما أسلفنا — كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود وحروبه مع الروم ، فغى غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة ، وكان قد سرى إلى النبى نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية ، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره .

« والحقيقة الثانية ، أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع ،

« ولكن لايعاب عليه أن يحارب بالسيف " سلطة " تقف فى طريقه ، وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه ،

« ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية ، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة ، وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف . . .

« وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التى تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء . . .

« والحقيقة الثالثة أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها .

« فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح ؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) .

« والدولة التى يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها ، بماذا تفض الخلاف بينهم إن لم تفضه بقوة السلطان؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ * فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

« . . . إن الإسلام شرع الجهاد ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلَّا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلَّا بحقها وحسابهم على الله » ، وجاء فى القرآن الكريم : (فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا) .

« وحدث فعلا أن المسلمين فتحوا بلاداً غير بلاد العرب ، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح ، إلا أن هذه الفتوح تأخرت فى الزمن ، ولم يتم شىء منها قبل استقرار الدولة فى الإسلام ، فلا يمكن أن يقال إنها كانت وسيلة الإسلام للظهور ، وقد ظهر الإسلام قبلها ، وتمكن فى أرضه ، واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت فى سبيله .